EHAB MOUSTAFA

مقام الشيخ أمين

مدونة ابو عبدو

إيهاب مصطفى

رواية

تويا

رِوَايَة

مَقَامُ الشَّيْخِ أَمِين

إيهاب مُصطفى

الإهداء

إِلى أَبِي..

الحُلمِ الحقيقي الذي أُقَبِّلُ يدَه كُلَّ يومٍ.

"إن كان القليلُ من الأحلام يضرُّنا، فالعلاجُ ليس التوقف عن الحُلم بل بأن نحلم أكثر وأكثر طوال

الوقت"

"مارسيل بروست"

استيقاظ مُبكر

- يا جوييييييييد..

صوتٌ قوي ينطلقُ من حنجرة الأب، يدخلُ عبر شراعات الباب المُغلق ليباغتَ أذن جويد؛ يقوم الأخيرُ مُنتفضًا بقسوةٍ ويُحاول السيطرة على أنحاء البدن المُرتعش؛ أنفاسه تتلاحق وهو يدفن وجهه بين راحتيْه.

- كيف لم يستيقظ إلى الآن؟!

يرتاحُ جويد قليلًا، تهدأ رعشة جسده، ويُحاول أن يطرد ذلك الحلم الذي كان يعيشه منذ لحظاتٍ، حلمٌ متكررٌ وثقيلٌ علي بدنه، عالم الحلم نفسه يتغير كل مرةٍ، لا يوجد فيه شيء ثابت إلا الشيخ وهو، يأتيه ذلك الشيخُ الجميلُ- هو لم يتبين كل ملامحه، على الرغم من المرات الكثيرة التي رآه فيها لكنه يشعرُ بأنه جميل؛ شيء ما يُجبره على قول إنه جميل، يقول له الشيخ: "اتبعني يا ولد!"، جويد يشعر بأنه منساقٌ خلف الشيخ، محكومٌ بالحركة، ربما يقول– الشيخ- هذا الكلام ليُشعره بأنه بكامل وعيه داخل الحلم، وأن حركته تتم بإرادةٍ منه، يقول جويد: "إلى أين؟"، يلتفت إليه الشيخ، ولا تبرز منه تلك التفاصيل التي يود رؤيتها، مجرد رأس مُعمم بشاشٍ أبيض، وذؤابة تتدلى من خلف العمامة، له لحيةٌ بيضاء وقورة، وباقي الملامح تختفي خَلف الظلمة، يقول الشيخ مُكررًا: "اتبعني يا ولد!".

دائمًا الشيخ لا يُفصح عن السبب، يتبعه جويد، وعادة يستيقظ قبل أن يتمكن من رؤية باقي الحلم، ربما يتبعه ويرى شيئًا ما يُخفيه الحلم كتفصيلةٍ لا يهمه معرفتها، لكن يقلقه تكرار الحلم، يقلقه ذلك الشيخ النمطي، وفي الأخير يُحاول أن يُحيل الأمر كله إلى تخاريفٍ الحلمِ. الشيوخ لهم صورةٌ تقليديةٌ في نظره، هم أصحاب لحيةٍ طويلة يمنحها اللون الأبيض هيبةً قويةً ووقارًا كبيرًا، الصورة نفسُها التي اعتاد رؤيتها في النجع، ثم لماذا لا يرى ملامحه في الأحلام؟ كأن الأحلام اتفقت مع بعضها على أن تُريه شيئًا رمزيًا لا يعرفه، ومع أنه لم ير ملامح الشيخ لكن حلمه يُقنعه دائمًا بأنه شيخ، اللحية والعمامة لهما تأثيرٌ خاص في النجع ولهما مُسمى يليق بهما، فلو أن إمام المسجد ليست له لحية لما استحق لقب شيخ، ولو أن أحدهم له لحية وعمامة ولم يقرب مسجدًا لاستحق اللقب.

أبوه يمنح لصوته طاقة صراخ أكبر، ظنًا منه أنه لم يفلح في إيقاظه. بحركةٍ تلقائيةٍ اكتسبها جويد من استيقاظه يوميًا بالطريقة نفسها يقوم فيقع الكتاب الذي كان يقرأ فيه قبل نومه، يُمسكه ويثني ورقة منه ليعلم أين يقف في القراءة، يُدلدل قدميْه إلى الأرض لتنزلا بهدوء، كل قدم على فردةٍ من "الشبشب" المسنود أسفل السرير، يقف ويتمطى بقوةٍ ويتجه إلى الدولاب ليضع كتابه بجوار إخوته، يتمطى مرة أخرى بقوةٍ راميًا بالنوم إلى أنحاء غرفته.

- المغرب على وشك الأذانِ.. كيفٍ ينام إلى هذا الوقت؟!

يفرش جويد على فمه ابتسامة خفيفة تنم عن انتصارٍ لحظي حين يُضاعف الأب من حدة الصوتِ، الأب ينتظرٍ قليلا كي تخلد أحباله الصوتية إلى راحةٍ قليلةٍ نسبيًا تشتد بعدها بقوةٍ مطلقة صرخاتٍ قويةٍ حفظت في موجاتها اسم جويد، كان يعلم تمامًا أن أباه لن يهدأ حتى يخرج من حجرته، ويُحاول تلطيف الجو لأن أمه لن تسكت على صوت أبيه الأجش، والذي يُشبه رحايا طحن القمح، ابتسامة جويد تفرش نفسها على اتساع فمهٍ وتتحول لضحكةٍ صغيرةٍ يكتمها ويمنح جسده لبراح صحن الدار، يلمحه الأب فيكتم صرخةً كانت في طريقها للخروج.

- إنه الدلع الأكثر من اللازم!

الأب يوجه حديثه للأم، وكأي أم لا يمكن لوليدها أن يفشل- حتى وإن كان فاشلًا- تبدأ دفاعها، ولها وجهة نظر في ذلك أن جميع أبناء النجع فاشلون، كلهم لهم صدورٌ لا تحوي إلا القلق من مستقبلٍ لا يُفصح عن مكنونه، كلهم لهم أيدٍ لا تعمل في انتظار تحنان الله عليهم، كلهم يُعانون من أملٍ في براحٍ مليء بالفرحة التي لا تجيء، وبالتالي فإن كانت المشكلة على العموم إذن لا توجد مشكلة منَ الأصل، جويد- كغيره من أبناء النجع- انتهى من الدراسة منذ بضع سنوات وحصل على دبلوم التجارة، وبالتالي هو متعلمٌ وله حق الوظيفة على الحكومة، وأغلب شباب النجع والنجوع المجاورة ينتظرون الوظائف بحكم تعليمهم، وهي آتيةٌ لاريب، هي مسألة وقتٍ والفتى صغير، وبالتالي هو غير مُجبرٍ على المشي في طرقٍ أخرى لمهنٍ أخرى يمتهنها غير المتعلمين.

جويد الآن يأخذ طريقه للحمَّام، يهدأ صوتُ الأب وينكمش تمامًا، مُفسحًا الفراغ ليعلو صوت خَفَقَات يد الأم وهي تخلط النخالة ببواقي العيش الناشف، وتصبُّ عليهما الماء الساخن وتقلبهما بيدٍ خبيرةٍ ومُدربةٍ، يُحاوطها الدجاج ويمد مناقيره للخليط قبل اكتماله، تُخرج يدها وتهشه بقوة، يقأقئ، ويتقافز إلى الأعلى وريشه يتطاير في وجه الأب الجالس على بصطةٍ مرتفعةٍ قليلًا عن أرضِ الدار، يأتي الديك الضخم ليخفق بجناحيْه بقوةٍ مُصدرًا موجاتٍ هوائيةً متلاطمةً ويمد بوزه مطلقًا نداءه العتيق، يضربه الأب بالحذاء.

- كم أكره الدجاج، أكره الصوت المزعج لهذه الطيور قليلة الحياء.

تنظر إليه الأم وعيناها تكادان تطقان شررًا، وهي تُطلق كلماتها موافقةً ليدها التي تتابع تقليب الخليط.

- ولماذا لا تعرف كرهك لهم حين تأكل لحمهم، لولاها لما عرفنا كيف نشتري التلفزيون ولا الثلاجة، ولا عرفنا كيف نقضي الشهر براتبك الذي لا يكفي أسبوعين؟

يعرف الأب أن لسانها لن يهدأ لو تكلم كثيرًا، لذا كان لا بد له أن يُغير دفة الموضوع ليفتح موضوعًا آخر لا يحتاج فيه إلى كلام كثير.

- أنا محتاج كوب شاي، الصداعُ سيشُق رأسي لنصفين!

الأم تشير إلى السقيفة التي استكان بها الوابور ذو الفتائل راقدًا وبجواره الكنكة، والتي تفحم جزؤها السفلي وبدأ العلوي يقاوم زحف الهباب الأسود عليه.

- هذه كنكة الشاي وبجوارها الشاي والسكر، إن كنت تريدني أن أقوم لأصنع لك الشاي

فلتنتظر قليلا حتى أنهي الخليط.. دجاجي هذا.. أليس له بطن يود الشبع؟!
يتضايق الأب ويزفر بغضبٍ ولا يقدر على الكلام..
يعرف جويد أن أمه عنيدةٌ كما يجب للعنيدة أن تكون، هي لن تراعي الأب المحتاج لكوب الشاي عوضًا عن دجاجاتها، ودائمًا ما يضحك حين يتذكر أنها تدس البيض لتبيعه، وتترك أباه يذهب إلى عمله ببطنٍ خاوٍ، كانت تُقدس طيورها، تشتري لها الخس والقمح والفجل والبصل الأخضر، وتضع الجبن وتسلقَ بعض البيض للديك الرومي، كانت تُلملم البيض من تحتها كجزاء معروف لصنيعها العظيم، في بعض الأحيان كان- جويد- يراها تُمسك بإحدى الدجاجات وتدخل إصبعها في مؤخرتها لتُخرج بيضة، أو لتحدد دورها في الذبح أو البيع، إن كانت لا تبيض. يخرج جويد من الحمام بعد أن اغتسل، يعودٍ للأب صوته الحاد وهو ينظر إلى ولده بطريقةٍ غلفها بقسوةٍ حاول أن يجعل قسماتها واضحةً على تفاصيل وجهه.
- سأصبر عليك، إن جاءتك الوظيفة فهنيئًا لك، وإن لم تجئ فسيكون لك مكان هناك.. عند الأدهم.
تنظر الأم إلى الأب فتلين ملامحه قليلًا، تحك يديْها بحافة "العجانة" وتفردهما مرفوعتيْن قدام وجهها وتفرش على فمها ابتسامة، وهي تلتفت لتواجه جويد خلفها، ترفع نظرها إلى فلوق النخل التي تحمل سطح الدار، وتقول في صوتٍ تُحاول بقدر الإمكان أن تجعله مبتهلًا.
- أنا أمه يا رب..انصره على أعدائه وابعد عنه شر الحاقد والحاسد، اجعل الكل يُحبونه أكثر مما يُحبونه، إني راضيةٌ عنه فارض عنه يا رب.
يميل جويد على رأسها المعصوبِ بالمنديل المحلاوي ويُقبله عدة مراتٍ فتلهج وتسحب وجنته إلى فمها، وتطبع عليها أكثر من قُبلة، يعلو جويد برأسه بينما الأم تتابع:
- يا رب..من له مثل جمال ولدي؟!
بالفعل، كانت لجويد ملامح جبليةٌ منحوتةٌ بدقةٍ كأنه حفريةٌ قديمةٌ من حفريات الفراعنة، بوجهه الذي يميل إلى اللون الخمري فيشبه النحاس المصقول، وأنفه الصغير المستقيم، وشعره المُجعد والملفوف حول بعضه في دوائر مفتوحة الآخر، له عينان عسليتان وجسمٌ متناسقٌ في اتحادٍ واضح، له وركان مليئتان باللحم وزندان قويان ينتهيان بساعديْن لهما كفان قويتان، أشار جويد إلى أمّه موجهًا كلامه للأب:
- لخاطرها سأجهز لك كوبًا من الشاي يضبط اتجاه دماغك ويزيح عنك الصداع، وأنا أعرف أن الشاي الثقيل يجعلك متزنًا، كل ما أخاف منه أن تتعود على شرب الشاي بالطريقة التي أصنعه بها، ماذا ستفعل في عملك إذن؟! هل تأخذني لأصنع لك الشاي هناك..عند الأدهم؟!
الأب يفرد ابتسامةً ساخرةً- حاول أن يجعلها متماسكةً- على شفتيْه..
- أتعرف يا جويد، أنت على حق في هذا الأمر، أنا من القلائل الذين يعرفون كيف يضبطون الشاي ليُصبح موزونًا ويعدل الدماغ المائل، أنت ورثت هذا الأمر، ورثته مني يا ولد، من شابه أباه فما ظلم، الأدهم لا يشرب الشاي إلا حينما أكون موجودًا، وبالتالي هو يحتاجني بشدةٍ، وهذا يُريحني تمامًا في العمل لديه، صدِّقني يا بني، الأدهم لا يستطيع فعل أي شيء بدوني.
كان جويد يعرف أن أباه يقول هذا الكلام وهو غير مقتنعٍ به، ربما ليجد مبررًا يُغلف به الأمر حتى لا يكره عمله لدى الأدهم، أو تبقى في صدره حاجةٌ تجاهه، ثم إنه يعرف تمامًا أن الأدهم ليس له عزيز، وأن الجنيه له عنده قدسيةٌ خاصة، لا أبوه ولا الخفير "مجاور" الذي يُسمونه ذراع الأدهم، ولا أي أحد من الذين يعملون لديه يتساوون مع الجنيه، ولولا احتياجهم للقروش القليلة التي يدفعها لهم- على مضضٍ- لتركوا شغلهم عن طيب خاطر، حتى وإن كانوا سيعملون لدى غيره بمبلغ أقل مما يدفعه الأدهم لهم، دائمًا ما يُذكرهم الأدهم أنه سيد بيوتهم ولولاه لما

انفتح بيت، وهو ولي النعمة ولولاه لجاعوا وتشرذموا في الأرض، هذا غير ضربات العصا المالطي التي يسوقهم بها قدامه كالنعاج.
دائمًا جويد يعرف اليوم الذي أهين فيه أبوه، يعرف من كلامه الزاعق لأقل الأسباب، يبعثر لحظتها جماد البيت بدون أن يكون هناك سبب فعلي لذلك، ودائمًا ما يفتعل أسبابًا للعراك، وحين تقص الأم الأسباب لا يقتنع جويد بها فعليًا، أبوه يُهيئ لنفسه ضرورة الفعل الذي يُريحه نوعًا ما بديلًا عن المعارك الخارجية، وبديلًا عن التلفظ في وجه الأدهم بشيء ربما يُطرَد لأجله، ودائمًا ما يتقبلان فعله بأريحيةٍ تامةٍ، هما يُقدران للأب جرح كرامته من أجلهما، وأن له عليهما حق السكوت، ودائمًا يأتي وعد جويد بأنه سيُريحه في المستقبل القريب، ويُخبره بأنه مُقدر لفعله العظيم، وفي النهاية يرجوه جويد أن يرتاح إن كان متعبًا وسيكمل هو السير بأمور البيت، وإنه قادرٌ على العمل، لن ينتظر الوظيفة وسيُجاهد لراحته، لكن الأب يُنكر عليه قوله ويُخبره بأنه لا يزال مُعافى على القعود في البيت كأمه يبيع الدجاج والبط والمالطي، ثم إنه يكره أن يكون ابنه حاصلًا على دبلوم التجارة ويعمل في الزراعة والفلاحة والري والحصيد والدريس، جويد له مكانٌ هناك، بين الكتبة في الصحة، أو حُجاب المحاكم، أو حتى في دائرة الشؤون، ثم إن ابنه كان متفوقًا في دراسته وكان ظلمًا له أن يُجبره على الاكتفاء بدبلوم التجارة، ومن أين له أن يصرف عليه ليلتحق بالجامعة؟ تقصيره في حق وليده كان يُسبب له ألمًا روحيًا، دائمًا ما يُحاول أن يتناساه، ودائمًا ما كانت راحة جويد ومعاملته كمتعلم حقيقي تُمثل له تعويضًا عن تقصيره في حق الابن، ثم إنه قارئ عظيم وله عقل متفتحٌ ودائمًا ما يحتاجه في المسائل التي يختلط عليه الأمر فيها.
في لحظات الزعيق يُفضل جويد السكوت، ربما يختنق قليلًا فيعلو صوته في وجه أمه، لكنه يرجع ويُقبل منديلها الذي يُحاوط رأسها، أمه سريعة الغضب، سريعة المغفرة، وهو لم يتَرَبَّ على رد الكلمة بالكلمة، وذلك ما كان يُحببهما فيه، لدرجة قول أبيه إن الله منحه بلسمًا يُسمى جويد، ثم إن جميع من بالنجع يُفرغون كبتهم بطريقةٍ أو بأخرى في بيوتهم، ومن يحتملك إن كان بيتك لا يستطيع احتمالك؟! البيت هو الماعون الكبير الذي تُفرَغ فيه الانفعالات، فيرجع الناس لتعبهم النهاري كأنهم خُلقوا من جديدٍ، متناسين ما يقع على أبدانهم من تعبٍ وجروح يُسببها الكلام، كل ناس النجع ليس لديهم شيء ليفعلوه حيال الأدهم، مُجبرون على تقبله بتلك الكيفية، لا يقدرون على صد جروح الكلمات التي تجعلهم ينزفون وجعًا، هم مُجبرون على الاحتمال، إلى أين سيذهبون إن طردهم؟! ليس أمامهم إلا التراحيل والعيش الناشف والمش والملوخية الناشفة ليلًا ونهارًا، ثم إن البُعد نفسه عن الأهل يجعل القلق ضيفًا دائمًا على صدورهم، صحيح أن الأدهم كان يفعل ما يطيبُ له بالخلق الذين يتحركون بإشارات العصا المالطي، يستسلمون للسعاتها أحيانًا، ويجرون كأطفالٍ أمامها، لكنه طيِّب، وطفلٌ كبيرٌ، يعلمون تمامًا أن به مسًّا من جنون، أو أنه جنونٌ لحظي سرعان ما يفيق منه ليأسف لهم ويُقسم بالله وبالرسل وبالأولياء أنه لم يعرف ماذا فعل ولا لماذا فعل، لكنهم في الوقت نفسه يخافون عليه، يضربهم فيفرون ثم يكاد يقع فيرجعون ليسندوه حتى يظل واقفًا، ويرجع ليضربهم مرة أخرى وهو يسبهم ويسب آباءهم وآباء الآباء، إن وقع الأدهم فربما يمرض، سيعني هذا إجازة رسمية من العمل، واليوم الذي لا يعملون فيه تتأثر البيوت كثيرًا به، أحيانًا تخلو من زادها، هم يحسبون القرش على القرش حتى قبل مجيء القرش نفسه، فما بالك بالوقوف عن العمل لمدةٍ طويلةٍ، هذا يعني الكثير، بطونًا تتألم، وعيونًا تدمع، وصراخًا يقفز من دارٍ إلى دار، هم تكيفوا منذ زمنٍ على طبيعة العمل، ومن هنا فمقدار الذي يسكن الجيوب بنفس مقدار الذي يُغادرها.
كان جويد قد أنهى سحب الفتائل الشريطية للوابور ووضع كمية من الملح مع السولار لكي

يَصفي الدخان بسرعةٍ، ثم أشعل عود ثقاب وأسقطه بداخل الوابور، أمسكت النيران بالفتائل المبللة بالسولار، وسرعان ما انتشرت في حركةٍ دائريةٍ، انقذف الهباب الأسود من الفتائل وراح يتماوج كراقصاتٍ مدرباتٍ إلى الأعلى، انتظر جويد قليلًا حتى هدأ الهباب وصفتِ النار تمامًا، وضع الكنكة عليه ونظر إلى السقف، كانت هناك دائرةٌ من السناج بدت واضحةً وسط الجير الباهت، أمسك جويد بالأكواب وغسلها وألقمها الشاي والسكر ثم أخذ ينظر إلى الكنكة، والتي بدأ ماؤها يتخبط في بعضه.

سَامِرُ النَّجْعِ

إذا كنتَ قادمًا من جسر "المصلب" فسوف يُواجهك النجع ببدايته المتمثلة في الميدان الوسيع، الميدان يُمثل نقطة تلاقي الشوارع الأربعة، والتي تُشكل صليبًا كبيرًا وممتدًا، بالأمام سيواجهك الشارع العريضُ الذي يربط جسر المصلب بالخور القديم، ومن وراء الخور يظهر الجبل الأحمر واضحًا جليًّا لارتفاعه المتسامق في الفراغ الكبير، الخور والجبلِ هما وجهتا الباحثين عن الكنوز الفرعونية واللقايا، وهناك المقابر غير المُعلنة، والتي يُدفن فيها الإناث المحمَّلات بالخطيئة بعد أن تشير إليهن بطونهن التي تورمت.
هناك كثيرٌ من الأقوال التي تمهد صدور أهل النجع ليسكن فيها القلق، يقولون إن الأدهم كان له باعٌ طويلٌ مع الحفر، وأنه وجد جرَّةً مليئةً بالتِّبر الخام، لم يتمهل وجرى من الخور عبر الشارع محتضنًا الجرَّة، قديمًا لم يكن هناك إلا بيوتٌ قليلةٌ على شاطئ الشارع العريض، وشيئًا فشيئًا راحت البيوت تكثر وتنتشر بالهجرات الجماعية للباحثين عن اللقايا والمُحملين باليقين عن قدرات الشيوخ المغاربة و"الطقش" الذي يجلبونه من بلادهم، يلحسه الجن فيدوخ ويُعلن عن كَنزه بسهولةٍ، وكثرت الناس وراحت البيوت تنتشر بقوةٍ، بدءًا من الشارع ولأعلى حتى طمست ملامح الجبلين من الناحيتين، وإن ظهر الارتفاعِ ليشي بأن البيوت نفسها مقامةٌ على مرتفعين؛ أبواب البيوت المطلة على الشارع من الجانبين تُشبه فوهات قِرب مستطيلة طوليًا تلفظ الناس إلى الشارع، وحين تمشي تعرف أن هناك دروبًا صغيرةً ملتوية تقسم التصاق البيوت وترتفع إلى الأعلى، تلف وتدور كثعابين صغيرة غير مرنةٍ، كأنها تلعب لعبة بلا انقطاع أو نهاية، من الدروب ما قطعته إحدى واجهات البيوت، ومنها ما امتد واكتمل إلى أعلى الجبل، وبالأعلى انتشرت مواضع الجِمال والبقر والحمير والماعز- وأيضًا الكلاب النافقة- مثل حوش كبير غير

مسور ومُتسع إلى آخر حدود الرؤية، الميدان ملك للعوام من الناس وخاصة يوم الأربعاء، وهو يوم السوق للنجع، يأتي الحلاق وبائع الطعمية وبائع النخالة والذرة المجروشة، ويأتي الجزار وبائعو الخضراوات والفواكه، والعطارون والعساسون، والمُفاصلون في أسعار البقر والجِمال وكل البهائم، باختصار كانت سوقًا متكاملة، وثباتها ليوم واحدٍ في الأسبوع كان يُجبر الناس على شراء مستلزمات الأسبوع كله من لحم وخضار وكلّ ما يحتاجه البيت؛ الميدان أيضًا كان مكانًا للحفلات والذكر مثل حفلة الشيخ البطل، والتي يُحييها المنشد الجميل "أبو بلحة"، أما الأفراح وحفلات سعاد لبن وأبيها فلها مكان آخر، فلا يصح في عُرف النجع أن يكون المكان الذي يشهد حفلات الذكر وأناشيد الطهر وتجمُّع الأولياء أن يكون هو المكان نفسه الذي تُقام فيه حفلات الرقص، وفي غير أيام السوق والذكر يكون الميدان مكانًا حقيقيًا للسَّمر لكل الناس على اختلاف النجوع، ويبقى مقهى "البلم" هو المكان الذي ترتاح فيه كل النفوس من شقائها، يبعثرون فيه همومهم وينفخون تعب صدورهم، ويستبدلونها بالضحك المجاني حين يتكفل سلمان ومن معه مثل قرقار ونجيب وعلي بإدخال الفرحة إلى الصدور المحتاجة، وتشكيل للبسمة على الشفاه المترقبة.

الرجل في النجع يأتي محملًا بالهم الذي لا تقدر على حمله الجبال، يسمع الحكايات المليئة بالطرافة والخيالات فيبحث عن الضحك المخبوء بداخله ويُخرجه إلى العالم، يعرف البلم أن لسلمان وغيره الفضل الكبير في شد الناس المحتاجين لنفض التعب عن أبدانهم والمحتاجين لضحكةٍ تُلين قلوبهم اليابسة، وترفع من قدراتهم لاحتمال مرارة العيش وقسوة الظروف.

كعادته الآن سيمنح جويد نفسه للشارع وللريح المحملة بنسيم المغارب القادم من النهر، والذي يجري على مهلٍ خلف جسر المصلب، يتمطى مرةً أخرى فاردًا نفسه بقوةٍ ومطوحًا ذراعيْه على الجانبيْن، وسامحًا للنسيم باقتحامه وغزوه بالكامل، وللتعامل مع جسده كيفما يحلو له.

الكسل الآن يُلملم صغاره من جسد جويد ويتركه نشطًا كأنه لم يقم متأثرًا بنوم "العصاري" الكئيب، هذا النوم عادة ما يُسبب خمولًا لحظيًا وفقدانًا للقدرة على التركيز الكافي، والتعامل بوعي غيرِ مكتملٍ مع الأشياء، لكن جويد يُغلق فمه ويسحب كمية كبيرة من الهواء المُنعش، ينتظر قليلًا ثم يُخرجها على شكل زفرات متتالية، فيحس بالانتعاش يسري في ملامح بدنه، يجلس على المصطبة الممتدة بطول واجهة الدار والمدملكة بالطين، والمرشوشة بالجير الأزرق الفاتح، الواجهة رُسمت عليها طائرة تتجه للأسفل كأنها ستهبط على المصطبة، ومن أعلى الطائرة عباراتٌ قديمةٌ تخلد ذكرى قديمة لجده الحاج، من تحت اللون الأزرق يأتي الأحمر الغامق الشبيه بدم الغزال ليحدد سفلًا صغيرًا يمر من أعلى المصطبة وبطول الدار أيضًا فمنح الواجهة منظرًا كان جماليًا قبل أن يبهت الجير، مدفوعًا بعوامل القِدَم، وقبل أن يُلَطِّخ أغلب الواجهة بالحناء وتُرسَم "الخمسة وخميسة" في الكثير من أنحائها يوم زواج سعدية وعبد الحق، وكُتِبَ بخط صغير وكبير "سعدية وعبد الحق يُساوي حب للأبد"، وبينهما كان هناك سهمٌ يمرق شاطرًا قلبيْن لكنه انكسر في الطريق وغاب معظم القلبين في قشور الحائط، وفي الناحية الأخرى من الواجهة تاريخ الزواج والدعاء- الذي لم يُستجب له- بالرفاء والبنين، ولأن بيت سعدية غير مدملك وغير مرشوش بالجير فقد استعاض الكتبة ببيت جويد المجاور لبيت سعدية لكتابة الذكرى السعيدة للزوجين لتزاحم ذكرى الحاج على الجدار، باب البيت مُكون من ضلفةٍ واحدةٍ تسمح بدخول الشمس من بين ألواحه ذات الفرجات الطولية، الباب له مزلاجٌ خشبي ضخمٌ يحوي فتحة كبيرة ممتدة لكي تسمح للمفتاح الخشبي ذي السنين الحديديتين بالدخول الكامل بارتياح تام، من أعلى البيت تطل الفلوق التي تسطح الدار وعليها "الجريد الناشف"، ومن فوق الجريد طبقة طينية تمتص الشمس ولا ترسلها إلى داخل الدار في أيام

الصيف.
يجلس جويد على المصطبة في انتظار خروج صديقه حامد، عادة ما يكون منشغلًا بدندنة لحنٍ مُوغلٍ في عمق النجع، كان دائمًا يسمعه من أبو سعاد.

"هات الغلاي وصب الشاي

اقعد يا أبو خالو اتحكى معاي

اقعد والحقني بسجارة

أوزنها.. دي الراس مندارة

بتلف كيف البكارة

ومشتت برج المخ حداي"

***

سمع جويد الصرير الذي يُشبه سيمفونية مزعجةً لباب بيت سعدية أثناء دوران قائمه في "الكوز" الصفيح، لمح القدم التي تلبس الشبشب، ثم لمح سمانة القدم نفسها وهي تخرج تتبعها عجيزة سعدية، والتي خرجت بظهرها ثم أغلقت الباب، ودسَّت المفتاح الخشبي في فتحة الحائط التي يبيت فيها المزلاج الكبير والذي يُشبه مزلاج بيتهم. غالبًا أبواب بيوت النجع كلها مُتشابهة، لأن يد النجار متشابهة في صنعته، ولأن الأبواب كلها يتم صناعتها من خشب الأثل. وضعت سعدية طرف شالها في فمها لتقرص عليه بأسنانها لتمنعه من الوقوع، وشدَّت أجزاء جسمها وعَدَّلَت من وضعية "قبتها" السميكة التي وارت سمانة قدمها التي لاحظها جويد، رفعت يدها وأشارت إليه بتحية وبسمتها تملأ الكون من حولها، رفع يده وأشار لها بنفس تحيتها بغير كلام. جويد يُحب سعدية جدًا، هي قليلًا ما تأتي لتطلب منه الأعمال التي لا تقدر عليها في غِيابٍ زوجها عبد الحق، مثل حمل الدقيق إلى الطاحون أو رفع "سباتة" البوص لتمنحها ظلًا قليلًا في أيام الخبيز، أو رفع أجولة التبن أو دلاء المياه أو أي شيء ثقيل. سعدية تعرف أنه لن يرفض لها طلبًا، في الحقيقة جويد لم يكن يرفض لأي أحدٍ أي طلب ما دام في إمكانه، كانوا يقولون عليه إنه تجسيمٌ حقيقي لمعنى المحبة، وإنسانٌ صافٍ تمامًا لا تُعكره شائبةٌ، كان مجردًا من كل ما يُشين، وكان يجد مردود هذا الكلام في حديث أمه، دائمًا ما تحكي له عن بنتٍ لمَّحت لها للزواج منه، وأنها خطبته منها وتنتظر موافقته فيُخبرها جويد أن وقت الزواج لم يحن بعد.
ذات يوم وحين قال الشيخ الذي يخطب الجمعة إن النساء ناقصات عقل ودين وقف له جويد، في وقفته هذه دُهش الكثيرون ممن يلبسون الجلابيب البيضاء الزبدة المزهرة، وآخرون من البسطاء ممن يلبسون الجلابيب الكستور، كيف يقف جويد والمسجد له حُرمَة وكان عليه أن ينتظر حتى يفرغ الشيخ من خطبته ثم ينتحي- به- جانبًا ليُصحح له رؤيته أو يُجادله في جوهر الكلام، وقف جويد حين وصل قول الشيخ إلى أن النساء خُلقن من ضلع أعوج لذلك هن معوجات بالفطرة، وأن النساء وصفهن الله بالكيد العظيم، وأن مكانهن البيوت، لأنهن سبب الفتن والبلايا التي تمور في النجوع، زعق جويد، زعق بقوةٍ وقال إن هذا الكلام غير مقبولٍ بالمرة، وليس معنى أنك إذا قابلت واحدًا فاسدًا في العائلة فمعناه أن العائلة كلها كذلك، الله جعل الاختلاف موجودًا لكي يتم التوافق، والمرأة شريك حقيقي في الكون سواء بإرادتك أو عدمها وليست موجودة فقط لتحمل وتلد، ولا تأخذ النجع مقياسًا لأفكارك، فأغلب الأفكار هنا ينبغي

هدمها كبيتٍ خربٍ وبعثها وتشكيلها من جديدٍ، ثم كيف تطلب عدم خروجهن من بيوتهن، هذا أمرٌ تحكم به على زوجتك وحدها وليس على أمي، ولو كان لديَّ أخت....
كان صوت جويد قد ارتفع جدًا مما حدا بالبعض للقيام للإمساك به وسحبه إلى خارج المسجد، وجويد يصرخ والشيخ يصرخ، وقتها سرى الكلام كدبيب نملٍ من دارٍ إلى دارٍ، وكثير من رجال النجع- ومعهم الشيخ- ذهبوا لأبي جويد، جلسوا على المصطبة ودارت أكوابُ الشاي الثقيل بينهم وحكوا له ما كان من الابن، فتفرس فيهم وقال: "جويد ابني متعلم ومعه دبلوم، ويقرأ أكثر منكم جميعًا، وما قاله لهو الحق"...
الشارع امتلأ بالناس وهم يُلقون التحايا على جويد، وهو يردها مغلقًا شفتيه بابتسامةٍ ممطوطةٍ يفتح بها طريقًا ميسرًا إلى قلوبهم، الناس عائدون من عمل اليوم الشاق مُحملين بالوجع النهاري، يُسرعون السير بحثًا عن لقمةٍ ومياهٍ ساخنةٍ يطردون بها الطين المُترسب على أجسامهم...
الليل الآن ينزل على مهلٍ وعساكره السود يغزون جسم الدنيا، يجرون وراء فلول النهار المُعاندة، والتي تُحاول التمسك بقطع خفيفة من الأفق البعيد، دقائق وتبدأ الأعمدة في زحزحة هذا الظلام إلى كتلٍ صغيرةٍ مبعثرةٍ في فضاءات الرؤية، ويبدأ الناموس والجراد في غناء المقطوعة اليوميةً للَّحن الأزلي كلما تقدمت في السير وأوغلت إلى ما بعد مقهى "البلم"، حيث "ترعة الكلابية...
- يا جويد..
يصله الصوتُ فيضحك ويضع قدميْه في "الشبشب" ذي الإصبع الوحيدة التي يجعلها ما بين إبهام القدم والسبابة التي بجواره، يتكئ بيديْه على ركبتيْه ويقف ويمشي، مشيرًا لحامد أن يتبعه دون حتى أن يلتفت.
- تعال يا حامد!
- انتظرني يا أخي!
يرد جويد ودون أن يلتفت، أنا لم أنتظرك وقت أن هجم عليك كلب الحاج علي، ولم تكن بأمانٍ من أسنانه وتريد مني أن أنتظرك الآنٍ؟!
ثم يتبع كلامه بضحكةٍ وهو يضرب كفًا بكفٍ، حامد أيضًا يضحك وهو يهم في السير. يعرف حامد أن جويد لم ينس يوم أن عقره الكلب، وكان حامد يظن أن الزمن كفيلٌ بجعلهما يتجاوزان الأمر خاصة أنه- حامد- ظل فترةً كبيرةً يُعاني الألم الذي أحدثته أسنان الكلب، واتضح له بعد ذلك أن الذكرى تكبر معهما، صحيح أنها أصبحت مادةً للضحك، لكن جويد يُبرهن على أنه لن ينسى الأمر مستقبلًا..
صوت اصطدام القطع الحديدية أسفل العكازين بالأرض وهما يحملان جسد حامد يقترب جدًّا من جويد، يُبطئ خطواته سامحًا لحامد بالاقتراب، تهدأ الأصوات نسبيًا حين يتساوى الجسدان في المسير، حامد كانت له قدمٌ صغيرةٌ مُعلقة تطعن جلبابه الأبيض للأمام كسهم يستعد للخروج من قوس، تندفع قدمه المُعلقة نحو الأسفل، تتقدم على قدمه اليمنى، وترتفع إلىَ الأمام حين يتقدم العكازان، كان جويد يضحك بقوةٍ حين ترتفع القدم المشلولة للأمام ويقول لحامد إنها تُشبه عضوًا كبيرًا نبت في غير موضعهِ، حامد يرفع العكاز في وجه جويد- وهو يضحك- كأنه سيضربه، ويتراجع حين يجري جويد من أمام العكاز، تصلهما الضحكات العالية والقادمة من مقهى البلم، وسلمان كعادته في الأمام ومن حوله الشباب يُشكلون شبه دائرةٍ هو مركزها، يسمعون حديثه الجميل والرائق والقادر على البحث عن المدسوس من ضحكاتهم وإعلانها للفراغ، كانت كلماته تغوص في دواخلهم كمنقب ماهر، دائمًا صوته له القدرة على جعلهم

يتناسون ما مروا به في يومهم الغشيم، يهبونه آذانهم وهو يدس فيها أحلامه عن سعاد لبن، تلك البنت التي راحت تفور أمام أعينهم كقِدرٍ هائجٍ، كانت تشتد حسرتهم وهم يجزون على أسنانهم، منذ أتى خراط البنات ومنحها جسمًا بضًا وريانًا وقادرًا على إشباع من لا يشبع، أمسك بها وأحكم قبضته على خصرها، اعتصرها ورفع يده ولم يعد خصرها لسيرته الأولى، بات كأنه انسيابٌ لقطعة مرمر مصقولةٍ بعنايةٍ ومسحوبةٍ بقدرة صانع عظيم، من فوق الخصر بروزان مدوران ومدفوعان للأمام بعكس ما يُفترض من وجوب ميلهما للأرض بحسبِ قانون الجاذبية، كأنهما هما من يسحبان الجسد ويُقيمانه للأعلى، أعلاهما ترى رقبةً مصقولةً كأعناق الرومانيات وكتفين تنتهيان بذراعيْن مرمريتيْن ومدورتيْن بنعومةٍ إلى حد الكف المنتهية بأصابع بضة، كأنما تكونت بوسطية، فلا هي متورمة ولا هي شحيحة، لها عجيزةٌ متماسكةٌ ولدنةٌ في آنٍ واحد، مصلوبة على فخذيْن مسحوبتيْن إلى الأسفل وتحت الركبتين سمانتان ملساوان وتنتهيان بقدمين مبسوطتين بلا زيادةٍ أو نقصان.
ما ساعد على مرور سعاد لبن لكل رؤوس الخلق أكثر من ذلك هو عملها كراقصةٍ، تظل تجوب النجع مُحركةً حملها الثقيل عليها والخفيف عليهم، ينتظرون الأفراح ليروا كم هي جميلة تلك الأفراح التي تُلونها سعاد بالفرحة، ردفاها قادران على لمِّ الناس أكثر مما يفعل صراخُ الحريم في المعارك، يُغني الأب والبنت تتلوى على إيقاع الكلمات فتهتز الشوارب وتنتفض، ويستيقظ الشوم الراقد، تتمدد الحسرة لتجد لها مكانًا وسيعًا في صدورهم، كثيرًا ما تساءل أغلبهم، لماذا حكم الله عليهم وعلى سعاد أن تحمل مؤخرتها معها إلى كل مكان؟! وكم حلف سلمان بأغلظ الأيمان أن أقصى أمانيه أن يجد مؤخرتها مسنودةً بجوار بيتها فيحتضنها ويشملها بحبه ورعايته حتى تُصبح كبيرةً جدًا، تمامًا مثلما يوضع البلح الأخضر في "الردة" ليطيب.
كل يوم يفتتح سلمان جلسته بحلمه اليومي عن سعاد لبن، يُقسم بأنها ضيفته في حلمه وأنها لا تمل زيارته، وهو الذي يُجهز كل شيء قادر على إسعادها واستخراج فرحتها، الشباب يضحكون ويتمايلون برؤوسهم التي ضبطها الدخان العامر بالكِيف، الدخان الأزرق قادرٌ على فرش الضحكة على كل الموجودات وأهم الموجودات هو صوت سلمان..
- أتعرفون سعاد؟!!
يتنهد بحرقةٍ ويُغلق عينيْه كأنه يهيم في الملكوت، تنهيداته تجعلهم يُنصتون تمامًا للكلام الطالع بصوتٍ قوي مليء بالشجن ويجعل وقعَهُ أقوى في نفوسهم.
- تخيلوا حلمي وفيه سعاد وجسمها الأبيض عليه القميص الأحمر، القميص يشف كل شيء، وكل شيء له جمال لوحده، صدرها جميل ووجهها جميل ورقبتها جميلة وحين تستدير وترى مؤخرتها، تحس أن العالم قد ضحك لك ومنحك كل الجمال عن طيب خاطر، لو منحوني مؤخرتها لاكتفيت من العالم، أنا لا أحتاج من هذا العالم إلا مؤخرة سعاد.
يهيمون بدورهم وكل منهم يستدعي سعاد، كلهم يُفكرون فيها ولا يقدر أحدٌ على منعهم من التفكير ولكن الاقتراب منها غير مسموح، الكل يعرف تمامًا أن سعاد لها حمايةٌ مسبوغةٌ عليها من العمدة الأدهم، هي التي تمده بلحظات الانبساط، وهو الذي يحميها وأباها وأختها في المقابل، ترقص له وحده على نغمات الناي، وتتلوى متوافقةً مع الصفير الجميل، مَن يُضايقها يُضايقه، ومن يُعكر صفوها يُعكر صفوه، ولا أحد يجرؤ على مضايقته أو تعكير صفوه.
لتوه لاحظ جويد ذلك الشيخ الذي يضحك، نعم كان يضحك، ويضع يده على فمه خوفًا من انفلاتٍ غريزي للصوت، كان غريبًا، لكنه يُشبه إلى حدٍّ بعيدٍ ذلك الشيخ الذي يأتيه دائمًا في الأحلام، قام واقترب منه، كان عجوزًا بلحيةٍ بيضاء طويلةٍ، وشعرٍ ناعم اختفى أغلبه تحت عمامته، والتي تتدلى منها ذؤابة يطوحها الهواء، يلبس جلبابًا أبيض ويُمسك بعصا معوجة لاريب في أنها

منزوعة من شجرة سنط، لكن ملامحه تنطق بمحبةٍ هائلةٍ وتشي بكمٍّ الجمال والطيبة التي كان عليهما عندما كان شابًا، وهذا ما جعل جويد يرتاح له تمامًا ويطرد كل عيال القلق التي كانت تتقافز بداخله، يا لهذه الملامح البهية، والتي توارت خلف عوامل الزمن المتشكلة على أديم الوجه.

- بالأمس زارتني سعاد كعادتها، هي دائمًا ما تزورني في الحقيقة، كانت تلبس الأحمر لأن حلمي يعرف أني أحب اللون الأحمر.

قاطعه أحد الجالسين.

- أنت عندك عمى ألوان يا سلمان..أنت تقولِ الأحمر لكنه في الأصل أخضر.

ضحك جميع مَن بالمقهى واغتاظ سلمان جدًا ونط فجأةً وأوقع الشاب وبرك على صدره.

- يا أخي هل كنت معي في حلمي؟

- لا لا لا يا سلمان.

- وهل تدخلت في أحلامك حتى تتدخل في أحلامي..هذا حلمي يا أخي وأنا حر في حلمي، تلبس الأحمر أو لا تلبس..هو حلمي وأنا حر فيه يا أخي.

لم يرد الشاب ثانية فقام سلمان من على صدره وعاد جلسته الأولى، وسحب نفسًا عميقًا قبل أن يُكمل:

- جاءتني تلبس الأحمر.

لم يُكمل ونظر إلى الشاب الذي أومأ برأسه موافقًا على الأحمر، هنا ضحك سلمان وأكمل حكايته.

الشيخ يكتم ضحكاته بقوةٍ حتى إن ملامح جويد ابتسمت، صراخ البلم على الشاي راح يُبعثر الضحكات المسموعة ويمنح المقهى حسًا عاليًا، لكن جويد ميَّز ضحكة الشيخ.

- أهي أول مرة تسمع سلمان، وهو يحكي عن سعاد لبن؟

قال جويد العبارة كأنه يُبرر سيره ناحية الشيخ، ومحاولته اكتشافِ سبب وجوده لسماع كلام سلمان واختبائه عن الشباب بهذا الشكل، وكأنه يمنح الشيخ إجابةً عن تساؤلٍ سيطرحه، ماذا تريد؟!

لكن الشيخ ما سأل، وجويد أمعن النظر تجاهه، وانتابته تلك الرعشة، كان يُحاول استخلاص كمِّ الجمال والبهاء من بين ملامح الشيخ العجوز، والشيخ منحه ابتسامة رضا أثلجت صدره.

- هذه أول مرة أراك فيها هنا يا شيخ.

نظر الشيخ إلى جويد مليًا كأنه يتفحصه، ولم يلحظ جويد تلك الابتسامة الخفيفة التي استوت للحظةٍ على شفتيْ الشيخ، لكن جويد ارتعش من أثر النظرة، كان يشعر بأن الشيخ يغوص بداخله ويتسرب إلى صدره ويتمدد عبر خلاياه، وضربته مرة أخرى تلك الرعشة.

- أنا أضحك لأن سلمان دائمًا ما يحكي نفس الحلم، ودائمًا يُبدل مجريات أحلامه، فيرى أحلامًا ويحكي غيرها لكي يضحك السامعون له.

تعجَّب جويد جدًا، من أين للشيخ أن يحكم في الأساس أن ما يقصُّه سلمان لا يراه في أحلامه فعليًا؟! وما الذي جعله متيقنًا إلى هذا الحد؟! وما الذي أدراه أن سلمان يحكي نفس الحلم كل يوم؟! ولماذا لا يكون حقيقيًا وهو مجرد حلم خاص بسلمان فقط وليس بأحدٍ سواه؟

- أنا أعرف أن هناك سؤالًا يدور بخلدك، ما الذي يجعلني مُوقنًا من أن سلمان لا يحكي فعلًا ما يراه؟

لم يجد جويد ما يقوله للشيخ سوى نظرةٍ بلهاء عبَّر بها عن اندهاشه الفعلي، وتلك الرجفة التي ضربت جسمه حين وضع الشيخ يده على كتفه واقترب منه مبحلقًا في عينيْه، شيء ما في

عينيْ الشيخ كان يبرق بقوةٍ، شيء ما جعل جويد يسكت تمامًا ويبدو كمسحورٍ ليُكمل الشيخ كلامه.

- سأخبرك لماذا يا جويد..لأنني أنا من يصنع الحلم كل يوم لسلمان وغيره، أنا من يصنع أحلامكم جميعًا ويضعها لكم في نومكم، أنا الملك على أحلامكم يا جويد.

قالها الشيخ واستدار فبانت على ظهرة مخلاةٌ قماشية مملوءةٌ بأشياء مستطيلة بدت أضلاعها القائمة ظاهرةً، وسمع جويد خشخشة عصا شجرة السنط على الأرض، وهي تتسحبُ خلف جسم الشيخ وغابت وراءه في الظلام باتجاه خور أبو جدول، ثوانٍ مضت ظل خلالها جويد ينظر إلى ناحية غياب الشيخ وأسئلة كثيرة تضربه في مقتلٍ، من أين للشيخ أن يعرف اسمه واسم سلمان، وكيف يقول أنا الملك على أحلامكم، وهل للأحلام ملك؟! وقتٌ كثيرٌ مضى رجع بعده يجر قدميْه جرًّا ليجلس إلى جوار صديقه حامد، والذي رآه متجهمًا على غير عادته.

- ما لك يا جويد؟!
- هذا الشيخ يقول أشياء غريبة يا حامد.

جاء الدور على حامد لينظر إلى المكان الذي كان يقف فيه جويد ويبحلق عدة مراتٍ ويُدير وجهه هنا وهناك، ويرفع يده فوق رأسه محاولًا زيادة حدة إبصاره كأنما يتقي شمس النهار، التفت في كل الأماكن التي تُغطيها العتمة وعاد ليسأل جويد في حيرةٍ:

- أي شيخ هذا يا جويد؟!
- الشيخ الذي كان واقفًا معي هناك.

وأشار إلى مكان وقوفه، قلَّب حامد نظرته بين جويد والمكان الذي كان يقف فيه منذ لحظاتٍ وخبط كفًا بكف.

- يا جويد من وقت جئت وأنت لوحدك هناك، وأنا اعتقدتُ أنك تُفكر في موضوعٍ ما ولم أشأ التدخل.

جاء الدور على جويد ليندهشَ ويُبحلق في وجه حامد بذهولٍ، وهو ينقل نظراته بين حامد ومكان وقوفه منذ لحظات.

- بالطبع أنت تمزح يا حامد!
- لا، أنا لا أمزح؛ بالفعل لم يكن هناك أحدٌ غيرك.

أشار جويد بيده متضايقًا وهو يقول:

- والله أنت عقلك غير موجود يا حامد.

ارتفعت الضحكات من حولهما وانتبه جويد إلى سلمان الذي لا يزال يحكي عن سعاد.

- أكاد أقسم أنكم لو رأيتم مؤخرتها التي تُشبه المربى لقتل كل منكم زوجته.

قالها وأخذ يُقهقه بصوتٍ ارتجَّ له جسده وضحك له كل زبائن المقهى.

بَاحَة رَقص

"هات الغلاي وصُب الشاي

اقعد يا أبو خاله اتحكى معاي

***

إن كنت تعوز نفسين جوزة

إحداي وشايلها للعوزة

واللي تشيله للعوزة

أهو ينفع في اليوم الجاي

***

هات الغلاي وصُب الشاي

اقعد يا أبو خاله اتحكى معاي"

الصوت ينسابُ لينًا ومنغومًا أمام الميكروفون، يُحاوط جسم الابنة ليمرجحها فتتلوى لتهيج العقول أكثر، البنت تصنع حالةً من السُّكر تمشي في عقول الخلق المُتكدسين أمام المسرح الخشبي الكبير، المسرح امتد على مساحةٍ تُمثل ثلث الباحة المخصصة للأفراح، باقي المساحة غرست فيها العروق الخشبية من الجانبين فبدت أشبه بالرواق، من فوق العروق امتدت الحبالُ التي تعلقت بها الأنوار كأشباح نيِّرةٍ، المسرح بدا باهرًا مليئًا بالنور، من بعيدٍ تبدو اللمبات كجروح طوليةٍ مقطوعةٍ في جسم الظلّام المُعتم، من حولها تنمو هالةٌ نورانيةٌ يأكلها الظلام كلما تباعدت عن جسم اللمبة الأم، الكل يتجمهرون في المساحة التي أمام المسرح، الرجال لا يقدرون على ضبط أجسامهم التي تهزها الموسيقى، يتمايلون في محاولةٍ للتوافق مع حركات جسم سعاد اللدن المعطاء والمتماوج بحريةٍ هيأها تكوين الجسد، وعلى الرغم من ليونة جسمها- والذي يبدو أقرب لأجسام الرومانيات- المصقول بعنايةٍ كما يُحب أن يصفها جويد، لكنها في نظره لم تكن راقصة، في الحقيقة كان عُري الجزء العلوي من صدرها يُشكل لها عامل جذب مهمًا ومحطا للأنظار التي تودُ الارتواء، لكن تمايلها وحركاتها لا تنسجم مع حرفية الرقص، هي تعرض أجزاء جسدها قطعةً قطعةً، دون القدرة على ترتيب كل تلك القطع بتحكم عقلي يمنح لكل جزءٍ دوره الحقيقي، وكأن كل شيء فيها له القدرة على تصريف نفسه بنفسه، هناك عصيانٌ خفيفٌ يفرضه أحد الأجزاء، يكبر- العصيان- كلما حاولت جمع أكبر عدد من أجزائها في الحركة الواحدة، ترى مؤخرتها تميل، والصدر يهبط من عليائه فيكاد يندلق دون توافق واضح، وهذا ما كوّن في النهاية لدى جويد حركاتٍ مفهومةً ومعروفةً مسبقًا، حركات متتالية كأنها على وتيرةٍ واحدةٍ، من السهل عليه أن يتوقع حركتها القادمة، حيث لا إبداع في استخدام كل مكونات الجسد، سعاد تدور دائمًا في مساحاتٍ واسعةٍ لتُلهي العين الملاحظة، تكشف الساق وتسحب بدلة رقصها إلى أعلى فيظهر جمال الفخذ الفتان، تطير العقول في رحاب الجمال، تتوالى تنهيداتهم ويضبطون عمائمهم ويبرمون شوارب فوق أفواهٍ بللها الريق، هم لا يعرفون شيئًا عن الرقص سوى العُري المُباح والمُتاح، حتى جويد كان يتغاضى عن ذلك ويُقنع نفسه أنها راقصة، إنه هنا كالباقين ممن يُحبون رؤيتها كراقصة ليس أكثر من ذلك، سلمان الهائم

بها كأنه شيخ أذابه الوجْد في حضرة الأولياء، يتمايل مُغلقا عينيْه ويَسكَر سُكر الجِمال، يُخرج التنهيدات ساخنةً مملوءةً بالوجع، تدور سعاد فيصرخ سلمان، يُدقق في فستانها وحين يظهر الفخذ يرتمي على الأرض هائمًا وسائحًا ومحبًّا، سعاد الآن أمامهم، ينظرون ويدققون ليكون استدعاؤها- في الحُلم- سهلًا وبغير مجهودٍ، جويد لم يُحاول مناقشة أمر رقص سعاد إلا مع حامد، فهو المُتقبل الوحيد والفاهم لمعنى الرقص الحقيقي، دون النظر إلى محتوى الجسد، كان يعرف تمامًا أن سعاد هي مُفرج الهموم التي تكدست في صدورهم، تلك الهموم التي تشكلت بصورٍ مغايرةٍ في نفوسهم، ومنحتهم سنًّا أكبر من سنهم الحقيقية، وتأتي سعاد فيفرحون، هي سعاد القادرة على هزيمة همهم اليومي، تترك لهم النشوة فيطيرون إلى عوالم من مسرة، هي الآن تدب بحملها على الأرضية، يهتز المسرح ويرتج الجسم المُحمل بالعيون، رجة الجسم تمنح الخلق سببًا لإطلاق الآهات وتسبيح الخالق العظيم على الصُنع العظيم، الأنظار تتوجه لبدلة الرقص المفتوحة حتى الركبة، العيون تحاول التسلل والصعود لكشف المخبوء، لكن سعاد الفاهمة تُعطي بحذر، فلا تمنع كُلية ولا تمنح كُلية، عند إحساسها أنهم يحتاجون أكثر، تميل بدورةٍ كاملةٍ لتنثني ويظهر مفرق ثدييْها واضحًا وغائرًا كشق جميل، تنتظر قليلًا لتمنح رؤية جيدةً للناظرين، وبعضًا من الرؤية لضعاف البصر والواقفين في الأماكن البعيدة، والتي حالت الأجسام دون المرور الجيد لنظراتهم، الهواء يتحد مع الليل ويُحرك اللمبات ليزحزح النور فوق الوجوه المنبسطة والضاحكة.

- "هات الغلاي وصُب الشاي
اقعد يا أبو خاله اتحكى معاي

***

أؤمر واتأمر على كيفك

إنت اللي موجب وأنا ضيفك

متقولي بس إيه شوفك

ف الونسة والجو مصفاي

***

هات الغلاي وصُب الشاي

اقعد يا أبو خاله اتحكى معاي"

الآهات تنطلق كهزيم رعد، أبو سعاد يتجاوب مع الأصوات فيمنح الجميع صوتًا مرسلًا فائق القدرة والعطاء، يضبط اللحن جيدًا، يُقرِّب الميكروفون ويُبعده، يخفض النغمة ويرفعها، فيعطي الصوت أبعادًا أخرى، يتفنن في التنقل بين طبقات صوته بسلاسةٍ، السامعون يدندنون ويروحون مع روعة الجسد الذي يتمايل إلى آفاق أرحب وأوسع من المحبة العظيمة، كل واحد فيهم يتمنى أن تكون سعاد زائرته في الحلم، يُغمضون الأعين ويتخيلون.
جويد فقط شرد بعيدًا، نسى الصوت ونسى الجسد المعطاء، وراح الشيخ يتجسم أمامه في الفراغ الوسيع، ذلك الشيخ الذي نجح أن يجد له مساحة كبيرة في تفكيره، هل يمكن أن يكون كلامه حقيقيًّا، ولِمَ لا؟!
كان جويد يروح ويجيء، والشيخ يكبر ويتعاظم في الفراغ، تتسع الأسئلة بحجم العالم، لا بد أنه شيخٌ أصابه الخرف ولا يعي ما يقول، لكنه ناداه باسمه، هز رأسه نفيًا، هو غير قادر على تصديقه، بخلاف معرفته الاسم فلم ير منه ما يُجبره على تصديقه، ثم إن الكبير قبل الصغير في

النجع يعرف اسمه، إذن فمعرفته لاسمه واسم سلمان ليس بمعجزة، ربما يكون هنا منذ وقتٍ طويلٍ وسمع البلم وهو يناديهم بأسمائهم، صحيح أنه لم ير منه أيضًا ما يجعله لا يُصدقه، لكن الإنسان بطبعه عدو ما يجهل، إذن فهو يمشي في الطريق الصحيح، لا يمكن أن يصدقه، ولا ينبغي عليه أن يفكر أن الأمر حقيقي فعلا، وجديرٌ باهتمامه إلى هذا الحد، ما أخافه هو قول حامد بأنه لم يره، لكن حامد ربما كان مشغولاً أو أنه لم يركز حدقتيْ عينيْه باتجاه صحيح ناحية الشيخ، نفض الموضوع تمامًا عن دماغه، ونجح تمامًا وهو يُبصر العمدة الأدهم واقفًا، ومشيرًا إلى انتهاء وصلة الرقص.

مَأسَاةُ سَعدية

بيتهم من الطوب اللبن مثل معظم بيوت النجع، الباب الرئيسي يُفضي إلى صحن الدار، أو "السقيفة" كما يحلو لأبناء النجع تسميتها، السقيفة مُعلق بها "شعليقة" تمسك بالسقف بسلك ألومنيوم وتستخدم لحفظ الأكل بديلًا عن الثلاجة، وبرغم وجود الثلاجة في البيت، لكن "الشعليقة" ما زالت تستخدمها الأم في حفظ الأطعمة، هناك أربع حجرات تطل على السقيفة زائد دورة المياه، حجرة جويد بآخر السقيفة نفسها ولها باب مثل باب البيت بضلفةٍ واحدةٍ، بغير مزلاج وإن كان مليئًا بالشرَّاعات التي تسمح بدخول زعيق الأب، وهناك حجرةٌ بجواره لم تسقف بعدُ تستخدمها الأم للخبيز وتعليق الثوم والبامية والملوخية، وتفرش فيها الذرة والبصل وغيرها، وهناك حجرة للأم والأب، وحجرة الجلوس أو "المندرة"، وهذه الحجرة بالذات دائمًا ما تكون مُغلقة ولا تسمح الأم للأقارب باقتحامها وبعثرة ترتيبها، هي مخصصة لمن يدخلون تحت لحاف كلمة ضيف، سواء كان صديقًا بعيدًا لجويد أو عزيزة على الأم أتت من بعيدٍ أو صاحب للأب جاء للسؤال والمبيت، وأغلب زوار النجع لا يدخلونها في الأساس، لأن جلوس الضيف في المندرة كفيلٌ بتحويله إلى غريب.
حجرة جويد بها سريره النحاسي ذو الأعمدة الأربعة، ومن فوق السرير امتدت الناموسية لتُغطي جوانب السرير تمامًا، إلا من الناحية التي يدخل منها جويد إلى السرير، وفي الركن مكتبته الصغيرة التي أهداها له ابن عم لأبيه يُقيم في القاهرة، وبجوار المكتبة دولابه الصغير الذي يحوي ملابسه؛ جدران حجرته المبنية بالطوب اللبن دبَّت فيها الشروخ بقوةٍ ليظهر ضعفها أمام سطوة الزمن، شروخ تُشبه حيَّاتٍ صغيرةً تجري هنا وهناك، عمق الشروخ هو ما جعل جويد يسمع كل الكلام الذي يدور بين عبد الحق وسعدية زوجته، سعدية كانت عاقرًا، وذلك

ما كان يُضايق عبد الحق، ويأتي المساء ليسمح للمأساة أن تتجدد، وتنتهي دائمًا بدموع سعدية قبل النوم، جويد يسمع ولا يتسمَّع، يُحاول أن يكون بعيدًا في الليالي الحميمية التي تنطلق فيها آهاتُ سعدية قوية، صحيح أنها مكتومةٌ لكنها واضحة، وهذا ما كان يُحاول أن يُكوِّن رؤية جديدة لسعدية في دماغه، لكنه ينفض دماغه ويطرد تلك الرؤية بقسوة حين يُدقق في الأمر، ويُقنع نفسه بأن أصواتها وغنجها بهذا الشكل له سببان، أولهما فحولة عبد الحق المبنية على جسدٍ مُترع بالصحة، وثانيهما حق عبد الحق نفسه في أصواتها كجزءٍ ضروري من إتمام اللقاء الحميم، سعدية رزينة وعاقلة، يشهد النجع أنها من أكثر الحريم عفة، لها لسانٌ جميلٌ لا ينطق إلا خيرًا، ثم إنها جميلة الملامح إلى حدٍ ما؛ في البداية كان عبد الحق يقول إنها هدية الله، وإنها جزاء الصبر ومكافأة أعماله التي لا بد أنها جليلة لأن المكافأة نفسها كبيرة، وحين طالت السنون ولم تُنجب أخذت من عبد الحق لقب عقاب الله، آهات سعدية تعلو وتنطلق مستجديةً ومسترحمةً وهي تُعلن حالةً من الانصياع الكامل والانقياد لهذا الجسد، ولهذا الكائن الذي هو بحجم العالم كله في تلك اللحظة، السرير غير مرحوم من الاهتزاز، خشبه يئنُّ بشكلٍ زاعق، الآهات تُحاوط جويد، يعتدل ويخبط كفًا بكفٍ بصوتٍ غير مسموع، وعلى الرغم من الورقة الكرتونية القوية التي وضعها على الشرخ الكبير في الجدار الفاصل بين بيته وبيت سعدية، فإن الأصوات كانت تتصاعد كعيالٍ صغيرةٍ وتتقافز إلى حجرته، يقول: "سبحانك يا رب"! لم يكن قادرًا على تخيل أن هذه سعدية، تلك التي تمشي بثقةٍ مُفرطةٍ وحشمةٍ واضحةٍ، كان يتخيل أنها لا يُمكن أن تتعرى لمخلوقٍ؛ حتى لو كان زوجها، وكان في بعض الأحيان يتساءل كيف للبنت أن تتعرى قدام أحد! لكنه يضحك ويصل إلى أنه لو لم تتعر البنت وإن لم يقذف الرجل ماءه في رحمها لما كان جويد نفسه موجودًا الآن؛ يا إلهي على صوتها المتضرع والطالب لرحمةٍ ولا يجدها، حتى خياله لم يكن يقبل بعُريها واستغاثاتها التي يملؤها الكُهن، صوتها يتوسل ولا يبتغي النجاة، يتوسل لكي يزيد توسله، جويد يكتم أنفاسه كي لا تظهر الضحكات حين تتكلم سعدية، لا يمكن للسانها أن يُطلق كل هذا السيل من الفُحش، كانت وسط متعتها تُطلق ضحكاتٍ يتبعها بكاءٌ وصرخاتٌ قصيرةٌ متقطعةٌ، يضرب كفًا بكفٍ، ويُقسم بأنه لا يُمكن أن تكون هذه سعدية، وحين تهدأ الأمور تتجدد تلك المأساة.

في البداية كان اقترانهما وسيلةً لغايةٍ ستجيء، وهي البطن الممتلئ بالحمل القادر على اكتشاف فرحة الأب، سيكبر ليحمل قوة والده ونضارة وملامح أمه، سيُجدد بين الناس حروف اسم الأب، والتي ستتشكل على مراحل مختلفة، سيكون خلفًا لسلفٍ يُشير إليه النجع، سيُعلمه كيفية الكلام في المجالس العُرفية، وكيفية الوصول إلى عقد المشاكل وحلها، سيجعله يد الأدهم اليُمنى، سيجعله أدهم جديدًا ببطشٍ جديدٍ، طفل يحمل جيناته من الأب القادر على إلحاق الهزائم بخصومه في المعارك الكلامية، والمعارك التي يكون الشوم سيدًا لها، وانتظر عبد الحق، لكن البطن ما امتلأ، وظل يُعاند تفكيره بقسوةٍ، لم يشأ أن يقول لسعدية، لكنها تعرف، تراه يرنو إلى بطنها علها تُخبره بشيء ما، علها تُفاجئه فيملأ الكون فرحًا ويتقافز كطفلٍ يُلاعب بالونة يطيرها الهواء، في الحقيقة لم تكن سعدية تُقاوم نظرات عبد الحق وحده، كل نساء النجع كن يسألنها سؤالًا واحدًا مباشرًا..

- ألم تظهر آثار الحمل إلى الآن؟

الحروف تنغرز فيها كحِرابٍ صغيرةٍ مؤلمةٍ، ترد سعدية باقتضابٍ:

- سيجعل الله بعد العُسر يُسرا.

فترد المرأة بيدها كأنما تُحاول مواساتها ولتظهر أنها مُشفقة عليها بفعل الربت على كتفها..

- فرجه دائمًا قريب يا سعدية.

تعرف سعدية أن ربت المرأة على كتفها يحمل كلامًا كثيرًا مبطنًا بالشماتة والتشفي، هي لم تفعل القبيح مع أحدٍ، لكنها أصبحت مرتعًا خِصبًا للكلام في الجلسات النسائية، دائمًا سيرتها محشورة وسط المواضيع التي تتلوها الحريم، بمجرد الجلوس- على "الطشت" لقطف الملوخية، أو لتصفية القمح، أو لفرك أكواز الذرة- تكون سعدية قد نبتت وكبرت في الأفواه، تُحاوطها كلمات العجز وداء البطن الذي يأكل العيال بداخله، في عقولهم يتربع رحم سعدية غير الجاهز لإنتاج الأطفال كباقي الحريم، مثلها مثل زهيرة بنت حيدر، تلك التي ما وجدت خادمًا لها بعد فشلها في الاستفادة من ماء زوجها، مات- زوجها- بحسرته بعد رفضه الزواج من أخرى، زهيرة نفسها وُجدت متعفنة ورائحتها هي التي أشارت إلى موتها، كل الحريم تلوك سيرة سعدية، يُمصمصن شفاههن في تحسُّر غير حقيقي، ويخرسن تمامًا حين تُقبل وتفرش عجيزتها على الأرض وتأخذ مساحتها أمام الطشت، تمد يدها البضة والمدربة لتقبض على السواد المختفي بين ركامٍ القمح، ببسمة تملأ شفتيْها وضحكة يرتج لها ثدياها وكتفاها كأنما الأمر لا يعنيها، يعرفن أنها تُواجه بصرامةٍ كل الكلام المسكوب في دلوها، كحكيمةٍ متمرسةٍ تعرف أين موطن الداء، تُحاول أن تُشعر من يتكلم منهن بأن مسألة عجزها أمرٌ ثانوي، وأن الأساس هو "ويجعل من يشاء عقيما"، فلا ضير إن كانت ضمن من يشاء الرب، وهي لا تكترث لهن إن كان هذا حُكمه، تخرس الألسنة حين تقلب الحديث بمهارةٍ من عدم قدرة إلى حُكم نافذٍ، النسوة يستدرجهن الكلام عن قدرة الله، وأن لله في خلقه شؤونًا، وأن الذي منح يحيى لزكريا، والذي منح لسعاد لبن كل تلك الحلاوة، والذي منح للأدهم كل هذا الغِنى، قادرٌ على جعل الأولاد تُلاعب بعضها في صُلب عبد الحق، فيبذر أرضه المُهيأة للحمل فيكبر البطن، وتتعدد الأفراح، ويُصبح الأمر عاديًا، وعاديًا جدًا، لكن هذا الكلام تقوله بينها وبين الناس، وفي الجلسات التي تُحاول أن تُخرس فيها الألسنة التي تتلوى بالكلام القبيح، لكن بينها وبين نفسها كانت تنسى هذا الكلام تمامًا، تنسى الله وترمي بالأمر كله عليها، مثلها مثل العُرف الذي يسري في النجع كشرع غير مكتوبٍ، أبدًا لن تُرجع- ولن يُرجع أحدٌ-العيب إلى عبد الحق، الذكر مُقدس في كل الأحوالَ، لا يمكن أنَ يكون به عيبٌ، حتى وإن أخطأت بنت وتورم بطنها بالحمل المفاجئ، فإن القتل يكون من نصيب البنت فقط، بينما الذكر لا يمكن عقابه، لا يمكن أن يُقتل لأنه لا يملك رحمًا يشير إليه بأصابع الانتفاخ، ولم لا يكون العيب في عبد الحق؟ هو مثلها لم يسبق له الزواج من قبل فلِمَ لا يكون هناك عطبٌ في مائه؟ هي لن تقدر على أن تقول هذا الكلام، سيبقى دفين صدرها، وكلام الحريم يُضايقها ويُسبب لها ألمًا عنيفًا، يشرخ جسدها كموسى حاد الشفرة، قالوا لها قبل ذلك إن عليها أن تقول له تزوَّج، ارتعشت يومها وصرخت وراحت إلى بيتها وبكت كثيرًا، كيف تطلب منه أن يُدخل عليها ضرة؟! كيف تسمح لنفسها أن تسمع صرخات امرأةٍ تئنِ تحت وطأة فحولته، وكيف تقدر لحظتها على الربط على قلبها؟ وماذا تفعل حين تلد ضرتها طفلا؟! سيضربها هذا في مقتلٍ، سيكون الطفل مثل دُمل مُتقيح يهيج ليؤلمها مرات ومرات ولا تقدر على استئصاله، يا إلهي لا يمكن أن يصل بها الأمر إلى هذا الحد، تعرف تمامًا أن الله يختبر صبرها وقوة تحملها، وأنه سيمنحها الطفل الذي يُخرس كل الألسنة، ربما سترضخ في النهاية لجزءٍ من نصيحتهن، ربما تذهب للشيخ أمين الساكن في الخور، في كل مرة تتذكر هذا الأمر ترفع يدها إلى السماء، وترنو إلى السماء الحُبلى بالغيم، والذي يمشي متبخترًا على مهلٍ في الفضاء الوسيع.

- يا رب!

تترقرق الدموع في عينيْها وتظل ناظرةً إلى أديم السماء إلى أن تتشوش رؤيتها..

- أحتاج طفلا من بدني يا رب!

تقولها فينزل الغيث.

الشيْخ

لثوانٍ تفتحت الدنيا أمامه فجأةً كوردةٍ زارها ربيعٌ مفاجئ، كان يمشي ومِن حوله تتصاعد زقزقةُ العصافير وهديل الحمام وتغريد الطيور المتباينة الأحجام والأشكال، لا يعرف أسماءها كلها ولكن لها رونقًا بديعًا في تناسق الألوان ودرجاتها وتشابكها، من الطيور ما يمشي في خيلاء واضحة بهدوء وبغير قلق، كأن رؤيتها له ما غيَّر من إيقاع حركتها، كأنهم معتادون على مجيئه أو كأنه هنا منذ زمنٍ بعيدٍ ولا يعرف، كل ما يعرفه أنه في حديقةٍ تتسامق أشجارها وتجري كائناتها، جويد كانَ يعي كل شيء، حتى إنه يعرف تمامًا أنه في حُلم، إنما حُلم خُطَّ بعناية، مشى قليلًا حتى رأى سربًا من طيور يحط على الأرض ورأى واحدًا ينشق عنها ويخفق بأجنحته مقتربًا منه ويستقر على كتفه بهدوءٍ، التفت إليه وخُيل له شبه ابتسامة جسَّدها منقار الطائر الجميل، رفع يده ومسَّد ريشه الملون، نظر إلى البعيد فرآه، كان الشيخ الذي قابله وسأله عن حُلم سلمان حين كان يتحدث عن سعاد لبن، جاء ووقف أمامه.

- كيف حالك يا جويد؟

من المفترض أن يُجيب جويد بأي كلام يريده الحلم، لكنه أحس بأنه مُخير في الكلام، يُفكر وكأنه موجودٌ فعليًّا بروحه وعقله وكل جوارحه، كأنها لحظةٌ يعيشها وليس حلمًا جاءه في نومه.

- أنا بخير يا شيخ.

- هل رأيت حلمًا بهذا الوضوح من قبل يا جويد؟

- الحقيقة أني كنتُ أفكر في الأمر.. أنا لم أر حلمًا بهذا الشكل من قبل، كأني أشعر بأني في الحلم بل إنني قادرٌ على التفكير في الكلام واختيار ما يروق لي.

ضحك الشيخ وافتراق شفتيْه عن بعضهما أظهر عقدًا من لؤلؤ مرصوص بتساوٍ كأسنان مشط جميل.

- لاحظ يا جويد أنك تملك القدرة أيضًا على التفكير بما يتوافق معك على عكس الحلم العادي تمامًا، والذي لا يمكنك التفكير فيه، وإنما تسير على هدى العقل، وقتها تكون هناك رؤية مسبقة يريد العقل تمريرها لك ولكن برمزيةٍ معينةٍ.

ثم سكت الشيخ وتقدَّم إلى الأمام وهو يطأ العُشب، ومِن حوله تتهادى الطيور ببطءٍ.

- قلتُ لك سابقًا إني مَن يصنع الأحلام لكم، أنا من يُمسك بألواحكم ليضع فيها ما يراه مناسبًا لكم.

- مَن أنت يا شيخ؟

- هذا سؤالٌ يجب أن تكتشفه بنفسك وأنا غير مُضطر للإجابة عنه، لكن استمع فقط لما أقوله لك!

وقف الشيخ ورفع يده في الهواء فتوقف كل شيء بصورةٍ مباغتةٍ، وأصبحت كل الأشياء مجرد صورٍ ثابتةٍ وجامدةٍ: الأصوات توقفت والطيور ترفع مناقيرها إلى الأعلى، توقَّف الحمام وهو ينقر الحَب من العشب، توقف غراب كاد يستقر أعلى شجرة، كل شيء توقف على الحركة التي كان يفعلها حتى الطائر على كتف جويد كان ثابتًا وجامدًا، هما فقط من كانا يتحركان.

- كل هذا الحلم يدور بداخلك، وأنا فقط من يتحكم في وعيك، لأنني أنا من منحك درجة الوعي في الحلم، وعلى الرغم من ذلك فأنا جزءٌ يتشكل الآن في وعيك.

هزَّ جويد رأسه وكتفيْه وهو يتفادى إحدى الأزهار.

- أيعني هذا أنك في حلمي..وأنت حقيقي؟

ضحك الشيخ بوقارٍ ثم عقد كفيه خلف ظهره وتابع السير بجوار جويد..

- نعم أنا في حلمك، نعم وأنا حقيقي، أنا من قابلته يا جويد وأخبرك عن سلمان أنه يحلم ويحكي بعيدًا عن الحلم الذي عاش تفاصيله، نعم، أنا أتحكم بالأحلام، والدليل هذا الحلم الذي تعيشه، سأقول لك شيئًا، ربما تُنكر أن يكون هناك أحدٌ يتحكم بالأحلام ويستطيع إدارتها كما يحلو له، ليس هذا مألوفًا لأحدٍ بالفعل، وطبيعي أن ترميني إلى صندوق الكذب لأن العقل عدو ما يجهل، هذا أمرٌ طبيعي، في الحقيقة أنا كنتُ أصنع لك الأحلام لأمهد لمجيئي إليك، الحلم قادرٌ على توجيهك إلى حب شيء ما تكرهه أو كُره شيء ما تُحبه وأنا قادرٌ تمامًا على الغوص في باطن لا وعيك لأخرج لك ما يختبئ فتراه في وعيك.

نظر جويد للشيخ وهو يتكلم، وحديثه يجد قابلية كبيرة جدًّا للقبول.

- معنى هذا أنك تضع الحلم بناءً على ما أحتاج من الموجود بالعقل الباطن في الوعي الذي أراه وأشعر به؟

أوقفه الشيخ واستدار ليواجهه فبانت ملامحه كليةً تبرق كأنها تشع بالنور، كان يبدو كجمالٍ مُتجسدٍ، جمالٍ حقيقي تنطق به الملامح وتشي به الابتسامة الوقورة التي راحت ترتسم على شفتيه بين الحين والآخر.

- أحيانًا، لكني لا أقول لك إن كل ما تراه في الحلم سيكون حقيقيًا؛ من الممكن أن ترى في حلمك شيئًا مغروزًا في عمق اللاوعي ليصعد إلى سطح الوعي؛ ومن الممكن أن يتغير الأمر كُلية، بمعنى أنك حين تحلم بفتاةٍ من الممكن أن ترى هذه الفتاة في الحقيقة ويتعلق قلبك بها لوجودها سلفًا في ذاكرتك المُهملة؛ ومن الممكن أن تُفكر كثيرًا في فتاةٍ ما رأيتها في الواقع ورؤيتك لها في الحلم تقربك منها أكثر، وتُحيلها من عالم اللاوعي إلى عالم محسوس وملموسٍ؛ ومن الممكن أن أضيف إلى عقلك شيئًا لم تره بتاتًا؛ ومن الممكنَ أن أغرزَ في حلمك حدثًا تاريخيًا لتمرير رمزيةٍ ما إليك، لكني في أغلب الأحيان أنظر إلى تفكيرك وأستنبط منه حلمك.

- إذن لهذا أنا أشعر بهذا الحُلم الآن، لأنك سرقت تفكيري من عالمي الحقيقي وبرهنت لي بالحلم على ذلك؟

ضحك الشيخ وتابع:

- يا جويد لو قلت لك هذا الكلام في الحقيقة فربما لا تُصدق، لكني صنعتُ هذا الحلم ليحتوينا وحدنا، أنا من أوقفت كل هذا العالم لكي نتكلم، وضمنت لك عقلك بحجمه الطبيعي وقدرته الكلية لكيلا تخشى شيئًا وتسأل، ويكون لك كامل القدرة على مجاراتي في كل شيء كأنك بوعيك المكتمل.

سكت الشيخ قليلًا، ثم تابع:

- أتعرف أنحن بالنهار أم بالليل؟!!

النهار واضحٌ تمامًا والنور يملأ العالم من حولهما، لكن جويد وقف قليلًا مُستريبًا من السؤال..

- نحن بالنهار طبعًا، هذا واضحٌ تمامًا.

أشار الشيخ إلى السماء..

- ألا ترى أنه لا توجد شمس في السماء، وعلى الرغم من ذلك فأنت قادرٌ على أن تُبرهن أن الوقت نهار، نظرًا لكمية النور الواضحة التي تراها أمامك.. هكذا هو الوعي، يمنحك ما تفكر فيه ويمنحك إثباتًا لما تُفكر فيه نظرًا لاحتياجك، على الرغم من أنك لو فكرت كيف لا تكون الشمس هنا، وأنت ترى الأرض مع ذلك ترتع بالنور، ستعرف تمامًا أن وعيك غير مكتملٍ بالأشياء.

- هل هذا الحلم حلمي أنا أم حلمكِ أنت؟ مَن الضيف فينا على الآخر؟
- أنا في حلمك بالطبع، وأنا ضيفٌ على وعيك.
- إذن كيف تتكلم بناء على تفكيرك وليس بناءً على وعيي أنا وتفكيري أنا.. فمن المفترض أنك مجرد فكرة من أفكاري.

وقف الشيخ واستدار إلى جويد..

- صحيح أنني في وعيك لكنني أنا من يصنع الأحلام ودرجة الوعي بها، وكلامك ينطبق على من هم ضيوفٌ في وعيك، وليس على ضيفٍ نبت من وعي أعلى من وعيك واستضاف نفسه في وعيك.

قالها الشيخ، ونظر إلى السماء ورفع يده فعادت الحركة لكل شيء، وعلت الأصوات ونفض الطائر نفسه على كتف جويد ثم حلق مُبتعدًا، فعلها الشيخ ونظر إلى جويد بابتسامةٍ واستدار ماشيًا وتابعه جويد ببصره حتى ابتعد تمامًا.

ثلاثة أقدام.. وعكازان

كان حامد صديقًا مُقربًا لجويد، وعمق علاقتهما هو الذي منح لحامد الثقة في قول: "إن من ذكر أن الخِلَ الوفي من المستحيلات لم ير جويد، وبالتالي له الحق فيما قال"، في البداية لم يلحظ أحدٌ إعاقة حامد، راحت قدمٌ تكبر وقدمٌ تنقص، قدمٌ تنفرد وأخرى تنثني، قدمٌ تمتلئ وأخرى تضمر، كأنها قدمٌ تتغذى على قدم، كان حامد ينظر إلى أبيه وأمه بتساؤلٍ كبيرٍ، كأنه يستنجد بهما من شيء لا يعرفه، نظراته كانت تتنقل بينهما بحيرةٍ كبيرةٍ وتزيد من محاولات المعرفة لما يحدث له، كبر الولد وعرف أن لهما ضلعًا كبيرًا فيما حدث، كبر حامد وكبر معه عجزه وقلة حيلته، أحيانًا كان ينظر لكل الناس على أنهم مُشاركون حقيقيون فيما حدث له، وأن جهل الناسِ في النجع هو الذي صَيَّرَه إلى هذه الحالة، لكنه يرجع ويقول إنها مشيئة الله، كتفه كانت ضعيفة أيضًا وتؤلمه كلما اتكأ على العكاز، ومرة بعد مرة قِبل إبطِه أن يتكيف مع العكاز وسمح له بالالتصاق به بقوةٍ، كان حامد يعرف أن هناك حرقةً هائلةً تمشي في صدر أمه حين تدخل عليه وتجده يبكي، حين تراه يُعاني من كل شيء في العالم الخارجي، من نظرات العيال وعيون الخلق التي تتكوم على قدمه المُعلقة، من الشفاه التي تمصمص بعضها في شفقةٍ عقيمةٍ يكره صوتها المسموع، كبر العكاز واستطال إلى الأعلى جاريًا وراء كتفه، وحين عرف جويد عرف معنى المحبة، حين يدخل الفتى ويوقظه بضرباتٍ يفرح لها حامد، صحيح أنه بعد ذلك تسبَّب له في

مصيبتين.. مرة حين قال له تعال لنسرق العنب من "كَرْم" الحاج علي، قفز جويد من السور القصير وأمسك به وأعانه ليقفز، وقتها قال له جويد أن يقف قريبًا من السور ولا يقفز معه حتى إذا جاء الكلب راكضًا يقدر هو على الهرب بسهولةٍ، لكن حُب المغامرة لعب في عقل حامد، وقال لجويد: "لن أتركك وحدك، ولا بد أن الكلب مربوط لأن الدنيا نهار والحاج علي يربط كلبه في النهار، دخل جويد ومرَّ بجوار الساقية ومشى حتى وصل إلى شجرة التين، وجد الخطاف- الذي يُستخدم لإسقاط الثمار المُعلقة- بجوارها، تمشّى حتى وصل إلى تكعيبة العنب، وبدا الجو آمنًا، تقدم حامد وقلبه يخبط ضلوعه بقسوةٍ، تقدم أكثر وسمع خشخشة يد جويد وهو يعبث في تكعيبة العنب، نادى على جويد بخفوتٍ كأنه يريد التأكد من أنه صاحب الصوت، وقف حامد مرعوبًا حين أتاه صوتُ الكلب، نباح بعيد لكنه أخذ يتعالى بقوةٍ، رجع حامد بأقصى سرعةٍ يسمح بها جسده بمعاونة العكاز، وصله صوتُ خطواتٍ قويةٍ تأتي مسرعةً من خلفه، لم يلتفت وحاول الجري أكثر، وجد جويد يتجاوزه مسرعًا وهو يصرخ فيه بالجري، وصل النباح القوي وشعر بجلبابه يرجع فجأة إلى الخلف ففقد توازنه ووقع، بمجرد وقوعه انكشفت ساقه فوجدها الكلب فرصة سانحة ليغرز نابيه فيها وكاد يجره بقسوةٍ لولا الحاج علي الذي صرخ في الكلب وجعله يُفلت ساق حامد، وقتها حاول الحاج علي الجري وراء جويد الذي كان يُراقب من وراء السور، لكن جويد جرى كأن أشباح العالم تُطارده.. رجع- الحاج علي- إلى حامد ونظر إليه وقال بغضبٍ.. "أمال لو مش عاجز"!

المرة الثانية كانت حين ذهب جويد مع العيال لتسلق نخلة الحاج ركابي، كل واحدٍ من العيال كان له دورٌ في تسلق النخلة، وحامد كان يُلملم البلح الساقط في حِجر جلبابه بمساعدة العكاز، وحين صرخ الولد الذي عيَّنوه ناضورجيًا بأن الحاج ركابي قادمٌ، هرب الأولاد كلهم ووجد حامد نفسه وجهًا لوجهٍ أمام الحاج ركابي، والعيال يُراقبون من بعيدٍ، كان حامد لا يزال يُمسك بحِجر جلبابه المليء بالبلح، وقتها ضربه الحاج ركابي على صدغيْه بقسوةٍ ولم يرحم إعاقته وهو يصرخ: "حتى وأنت عاجز يا ابن الوسخة"، وضربه "بشلوط" جعله ينكفئ على وجهه، يومها كان هناك طنينٌ متواصلٌ يدوي في رأسه، بعد هذين الموقفين لم يكن حامد يسمع كلام جويد الخاص باللعب، وأصرَّ على أن يلعبا بعيدًا عن كلب الحاج علي ونخلة الحاج ركابي، وانتقلت ألعابهما إلى "التريك تراك" و"البيضة والحجر" و"عضم الضاح"، لكن بعض الأولاد كانوا يُسمعونه كلامًا قاسيًا بالنسبة له مثل: "اتق شر من انتقص جسمه وشر من اقترب من الأرض"، و"الله لم يخلقك معوقًا إلا لشر كنت ستفعله"، كانت عبارات لها وقعٌ خشنٌ وجارحٌ في نفسه، فهي تعتبر أن الله- الرحيم- خلقَه معوقًا لشيء غامضٍ كان سيفعله، ربما سيُغير به ملامح تاريخ النجع والعالم كله، لأجل هذا خلقه الله معوقًا، كثيرًا ما كان يجلس ويتخيل بينه وبين نفسه ذلك الأمر الخطير الذي كان سيقوم به لو كان صحيحًا مُعافى، هل كان سيبيع المخدرات مثلًا؟ الكثيرون أصحاء ويبيعون المخدرات، هل كان سيقتل بنتًا مثلًا ويدفنها في خور أبو جدول؟ الباشكاتب يقتل البنات ويرميها في خور أبو جدول، ما هي أعظم الأخطاء في هذا العالم؟ لا يعرف، ثم إن هناك الكثير من الأصحاء جسديًا ويفعلون أخطاءً أكبر من أن يُفكر بها، الذي ينام مع بنت مثلًا، ثم تحبل منه، وتلد ثمرة خطيئته، وتكبر البنت لتجد نفسها في مجتمعٍ ينبذها بالكامل، مع أنها لم تُخطئ كشخصٍ، وإنما هي اجترارٌ لخطأ فعله أحدهم، وهي التي تُعاقب على الخطأ، هي التي تتحمل الكارثة لوحدها، ويا ليت الأمر اقتصر على عدم إمكانية الزواج منها، إنما تلوكها الألسن كأنها هي مَن أنجبت نفسها خاطئة، وبالتالي يُطبق عليها مَثل: "العِرق يمد لسابع جد"، ما ذنبها تلك المسكينة، وما ذنبه من وجد أباه شحاذًا أو عربجيًا أو عساسًا للبهائم أو حتى لحادًا؟ وما ذنبه هو؟ الجميع يحكمون عليه طبقًا لإعاقته وليس بناءً على شخصه أو أسلوب تفكيره، هؤلاء المجانين كانوا يظنون أن الله عاقبه قبل أن يفعل ما

يستوجب العقاب، حاشا وكلا، وكما تموج الطبيعة بأمثالهم تفرز أيضا من هم على شاكلة "جويد"، ذلك الحنون الذي لو قدر على ملء الأرض سعادةً للناس لملأها، الولد الذي تندلق المحبة من عينيه أثناء جلساته مع "حامد"، وكان دائمًا ما يعتذر له عن الضرب المُبرح الذي طاله، وعن حادثته مع الكلب الذي كان سببًا في عضه، "حامد" كان يضحك ويقول له: "ألا تقدر على نسيان الأمر، وتحوَّل الاثنان بمرور الوقت إلى أوعيةٍ تتسع لبعضها، وتحفظ كل ما يعتمل في نفسيهما من خططٍ مستقبليةٍ وشطحات الأفعال والكلام مع البنات، كانا بالضبط جسدًا واحدًا بثلاثة أقدام وعكازين.

صُرَاخٌ مُحْتَمَلٌ

استيقظ جويد هذا اليوم دون تدخُّلٍ من الأب والأم وهذا ما تعجَّب له، تمطَّى ونفض نفسه وانتعل شبشبه بهدوءٍ، توجَّه إلى الباب وهو يجرُّ الشبشب بقدميْه بصوتٍ مسموعٍ، فتح باب غرفته ليُطالعه وجه الأم وهي تجلس أمام التلفزيون، وحين رأته قفز كُم جلبابها إلى عينيْها ليمسح دمعًا متكومًا أبى النزول، فزع جويد واقترب منها مُستفسرًا، كانت تنتحب بقوةٍ وهي تعرك عينيها براحتيْ يديْها، جلس جويد بجوارها واحتضنها، وكان يتخيل أن أحدهم قد مات في النجع أو أن هناك مصيبةً حلَّت عليهم فجأةً لكن لا بد أنها مصيبةٌ كبيرةٌ بحجم دموع الأم.

- ما الذي جرى يا أم؟!

مسحت دموعًا أخرى سحَّت على الرغم عنها ومسحت أنفها الذي درَّ مخاطه ليبدو البلل واضحًا في كُم جلبابها الأحمر المزركش بالورود..

- سيقتلون حصانه يا ولدي، لأنه كبر في السن سيقتلونه، سيموت حصانك يا طلبة يا حبة العين، ليكن الله في عونك يا ولد، وفي عون حصانك الجميل يا قليل العيب.

نظر جويد إلى التلفزيون ورأى "محمود مرسي" في المسلسل الذي يقوم فيه بدور "طلبة" ومعه حصانه الأدهم الكبير في السن، نظر إلى أمه وتعجَّب من اندماجها إلى هذه الدرجة وتجاوبها مع المسلسل، قام وزفر بغضبٍ محاذرًا أن تسمعه، دخل إلى حجرته وسحب من دولابه الكالسون، والجلباب الكستور المقلَّم بالطول، والصديري واللباس البفتة، والفانلة ذات الحمالات..

- هل هناك مياهٌ ساخنةٌ على الكانون؟

أجابت الأم من وسط نشيجها:

- الحلة على الكانون وبها مياه ساخنة، خذ ما يكفيك ولا تنس أن تزودها بالماء ليجد أبوك ماءً ساخنًا، كلها ساعة وسينطلق أذان المغرب ولا شك أن أباك سيعود بعد قليلٍ.

- حاضر..

أحضر الماء وضبط سخونته على وضعيةٍ يحتملها جسده ودخل دورة المياه وغيَّر ملابسه بينما يصله صوت نهنهة الأم، وحين خرج حمد الله على تتر النهاية الذي انساب في لحنٍ جميلٍ، قامت الأم وهي لا تزال تبكي، وراحت تُسخن الطعام لجويد..

- أنت لا تعرف كم كان يُحب الحصان، لماذا يقتلون الحصان حين يكبر في السن؟ سيموت لوحده، لماذا الرصاص الذي يقصف العمر، هذا حرامٌ، كيف سيعيش طلبة حين يموت حصانه؟ يا كبدي عليك يا طلبة!

ضحك من غير أن يُظهر لها وإلا ثارت عليه. غالبًا في اليوم الذي لا يجد فيه غضب الأب يجد غضب الأم، وسبحان الله، لا يتفقان أبدًا لا في غضبٍ ولا في تهدئةٍ، دائمًا يجعلان "شَعرة معاويةٍ" تقف بينهما بحياديةٍ من ناحيته، وهو اعتاد على هذا الأمر، وكان يفرد بينهما مساحةً كبيرةً من وُد، واستغرب اليوم، لا يوجد زعيقٌ من الأب ولا يوجد زعيقٌ من الأم، حمد الله وتمنى دوام هذه الحال..

- ألا أكلمك يا معفن، هل كبرت على أمك! أنا الذي أقف بينك وبين أبيك حين يغضب عليك، لو كنتُ أعرف لتركته يضربك بالمركوب القديم.

نزعت منديلها الأخضر المليء بالورد فبان شَعرها الذي ابيضَّ، والحنة الحمراء التي راحت تفرض سطوتها على كتلٍ كبيرةٍ منه، أمسكت بخصلةٍ وجزّت على أسنانها وهي تقتلعها، اقتربت من شقٍ غائرٍ بالحائط، ووضعت فيه الخصلة..

- هذا شَعري هنا لو أفلحت في حياتك، ربنا ذكر الأم ثلاث مرات والأب مرة واحدة، وأنت تستهين بكلامي ولا تسمعني.

- هذا حديثٌ يا أم وليس قرآنًا!!

- هذا كلام سمعته من الشيخ، قال إنه قرآن وأنا أصدقه، هو يبر أمه ويسمع كلامها وأنت لا تعرف شيئًا إلا النوم و"الصياعة" على المقاهي والجلوس مع من يشربون المخدرات ويتكلمون على بنات الناس.

انحنت ولملمت قليلًا من ترابٍ من تحت الحائط ورمته على جويد وهو يأكل..

- خذ عليك وعلى مَن أنجبوك.

ضحك جويد وهو يرى الغبار ينزل حسيسًا على الأكل، أبعد الطبق ثم وضعه مرةً أخرى على الطبلية.

- لم أتعمد يا أم، لكني سرحتُ قليلًا.

نظرت إليه شزْرًا، ثم قالت بصوتٍ صارخٍ:

- قبر يلمك!

يعرف أنها ستظل تصرخ حتى يُقبل رأسها، الأب لا ينزع شَعر رأسه بنفس الطريقة، لكنه يبتسم بسخريةٍ ويقول له: "شخ على قبري لو أفلحت"، يضحك جويد ويخبرهما أنه لا يود أن يفلح حتى لا يُخبر شَعر أمه المُستكين بشقوق الحائط ولا يتبول على قبر الأب، الأم ما زالت تبرطم بكلامٍ مُبهم، وجويد يحتاج لتهدئة الجو، وخصوصًا لأن الأب غير موجودٍ، فكمية الصوت الذي سيتصَاعدَ كفيلٌ بشد الجيران على اختلافهما، وسيضطر للتفسير مثل كل مرة، فكَّر أن يُنهي

الموضوع بسرعةٍ قبل تدخل الجيران، هي أمه وعليه أن يحتملها في كِبرها.
قام من أمام "الطبلية" وتوجَّه إليها وحين رأته قادمًا أدارت وجهها كأنها لم تره، أمسك برأسها ومال عليه مُقبِّلًا شعرها عدة مرات:
- والله تعبت من أفعال الدنيا يا أمي.
يُريحها استسلامه فتُريح أحبالها الصوتية المُجهزة للصراخ والمُحملة بالحروف، وكأنها تفاجأت ببردة فعله، يبدو أن وليدها مُتعب فعلًا، كل شيء يُمكنها أن تتحمله إلا تعب وليدها، ثم مَن الذي سيُداويه إن رقد في البيت؟ والده بالطبع، وبالتالي ستنخفض ميزانية البيت المُتعلقة بالأكل والشرب، وربما يتأجل اللحم لأسبوع، وستُضحي بدجاجاتٍ أكثر للبيع، وربما تبيع الذكر الرومي، وربما يكون الدجاج راقدًا على بيضٍ، الموضوع كارثي بحق، قامت الأم وقبَّلته وراحت إلى الوابور وسحبت الفتائل ووضعت الكثير من الملح في السولار ليخفف من الهباب، أشعلت الوابور وانتظرت الهباب الأسود حتى صفا وصنعت للابن كوبًا من الشاي الموزون ماركة البراد الأزرق، ناولته الكوب وهي تسند يدها على ركبته.
- ماذا بك يا بُني، أفصح لي! أنا أمك، حبيبتك، ما الذي يوجعك من الدنيا، هل تريد الزواج، أم ماذا؟!
عرف أن القلق يترصد لها الآن كوجبةٍ دسمةٍ، وهذا ما جعله يحلف بالله أنه بصحةٍ جيدةٍ لكنه يحس ببعض الإرهاق.
أومأت برأسها عدة مراتٍ ووقفت وهي تشير إليه بيدها عاقدةً حاجبيْها ورافعة من نبرة صوتها.
- مِن الجلوس في المقاهي حتى الصباح، الناس يقولون عليك ولي الله، وأنت لا ينقصك إلا البردة والمخدة وتنام في المقهى.
ثم جلست بجواره وهي تخفض نغمة صوتها ومنحت نظرتها أسًى بدا واضحًا في تعبيراتها:
- جلوسك على المقهى يُغضبني يا ولدي، صحيح أنني أعرف أن الشباب كلهم يجلسون هناك، لكنك لست مثلهم، أنت مُتعلم ومعك دبلوم، كيف تكون مثل الجاهلين في النجع؟
كان هذا أقصى ما يحتمله فرفع صوته:
- يا أمي.. بالله عليك..أنا لا أحتمل.
صوته بدا لها عاليًا، حينئذ امتلأ جوفها بالكلام، أخذت نفسًا عميقًا وشدَّت حبالها الصوتية جيدًا، خرجت الحروفُ المتزاحمة لتسابقَ بعضها مخلوطةً بالصوت على شكل دفقاتٍ متتاليةٍ سريعةٍ وقويةٍ.
- أترفع صوتك على أمك يا ولد، وأنت تعرف كيف جئت إلى الدنيا؟!! أنت الذي أتعبتني في ولادتك حتى كدت أموت، ترفع صوتك عليَّ وأنت نزلت من مجرى بولي، الله الله، تكلم يا شيخ، تكلم وأفرغ صدرك في وجه أمك!
وأنهت حديثها حين ترك كوب الشاي وتوجَّه لخارج الدار:
- عشنا وشفنا كيف الشيخ يزعق في وجه أمه.
كان قد اختفى من قدامها حين رفعتْ يديْها للسماء، وتابعتْ:
- يا رب.. أنت تعلم أني أحبه يا رب، وأني لا أريد سوى مصلحته، أعلم أنه أفضل شاب في النجع، احفظه لي يا رب وأبعده عن المخدرات والحشيش، وجِّه لما هو خير له، وأبعده عن أولاد وبنات الحرام.
كان جويد يجلس على المصطبة والظلال تحث الخُطى وراء نور الشمس وتحتل المساحات الكبيرة كعساكر مُدربة، ضحك حين هدأت نفسه، يعرف أنها طيِّبة وأنها تُظهر عكس ما تُبطن، وقف وحكَّ رأسه بسبابته، لم يكن يرضى بغضبها، ولن يسمح لنفسه بأن يكون سببًا في تعبها،

رجع إلى البيت وحين رأته كادت ترفع صوتها مجددًا إلا أنه قَبَّل رأسها مرة أخرى فاحتضنته وقَبَّلته.

- أنا لا أحتاج إلا أن أراك بصحةٍ وعافيةٍ يا بني، وأن تكون مثالًا للرجل الصالح كما أنت تمامًا وكما تتحاكى الناس بأخلاقك.

أومأ برأسه عدة مرات متفهمًا، تركها ومنح نفسه مرةً أخرى للشارع العريض، الذي بدا لتوه يستقبل طليعة جيوش الليل الجديد، تاركًا أذيال النهار تُعافر للبقاء.

***

وصل جويد إلى المقهى، لم ينتظر حامد لأنه يعرف أن حامد لديه مشاغل كثيرة، وأنه لا يُدمن المقهى مثل سلمان وشلته، ليس ضروريًا بالنسبة له، لذلك يُبدل بين الأيام، يغيب يومًا ويظهر يومًا، كان سلمان يجلس وحيدًا منتظرًا قدوم قرقار ونجيب وعلي وباقي شباب النجع حتى يمنحهم حلمه اليومي عن سعاد لبن، جويد ترك الجميع وأمسك كرسيًا هزازًا ليست له أرجل، قدمه عبارة عن جريدتيْ نخيلٍ قويتين معقوفتين لتمنحا التمايل لمن يجلس عليه، والكرسي كله كان مصنوعًا من جريد النخل، أمسكه وابتعد به ليجلس في مكانٍ بعيدٍ نسبيًا، كان يتمايل للأمام والخلف والأعمدة تصعد وتهبط أمام عينيْه، هناك سؤالٌ ظل يُلح على عقله بصورةٍ مستفزةٍ، هل كان ما رآه في الحلم حقيقيًا؟ صحيح أنه كان يشعر بأنه كان يحيا الحلم على اعتبار أنه جزءٌ من الحقيقة، لكنه لا يعلم هل هو في الأصل جزءٌ من الحقيقة؟! بمعنى هل كان الشيخ بالفعل قاصدًا الدخول في حلمه بهذا الشكل ليثبت له أنه في حلم؟ أم أن الحلم نفسه مده بهذا الأمر نظرًا لتفكيره في الحلم بشكلٍ متواصلٍ؟ كان ينتظر ويعرف أن الانتظار يرفع من وتيرة القلق والتوتر، هل سيأتي الشيخ اليوم أم لا؟ وهل هو بالفعل من يصنع الأحلام للناس أم أنه كاذبٌ؟ هذا أمرٌ مُلغزٌ، عقله غير قادرٍ على القناعة بأن هناك من يتحكم في الحلم، العالم كبيرٌ جدًا على أن يتحكم فيه شخصٌ واحدٌ، هل يقدر على وضع أحلام للعالم كله؟! حتى وإن كان حقيقيًا فكيف جاءته هذه الكرامة؟! هل يكون وليًا من الذين يجوبون العالم وتُطوى لهم المسافات مثلًا، هؤلاء الذين يمشون على الماء ويعرفون ما اختبأ في منحنيات الزمن؟ الأمر مُحير جدًا، هناك شيء ما غامضٌ يلف المسألة كلها، ولن يكشف هذا الغموض سوى الشيخ نفسه، كان جويد يسرق النظرات إلى الطريق التي تصبُّ في خور أبو جدول، كانت الظلمة قد بدأت تتكاثف وترجع نظراته خاوية إلا من المسافات القريبة، وهمد توتره تمامًا حين رآه قادمًا بجلبابه الأبيض وذؤابة عمامته التي يطوحها الهواء أسفل إنارة الأعمدة الشحيحة، كانت شلة سلمان قد بدأت في الاكتمال، سيحكي عن ثوبٍ آخر بلونٍ آخر وطريقةٍ أخرى، لكنها في النهاية تنم عن ارتياح سعاد الجميل، وتقبلها لكل طريقةٍ، وشكرها للظروف التي أوقعتها تحت جسد الجبار سلمان، الوفود كانت تأتي حتى امتلأت المصطبة تمامًا والكراسي كلها، البلم راح يمر برشاقةٍ بين فواصل الزبائن موزعًا الشاي والشيشة، يمسك بصينية الشاي فتتمايل بيده صعودًا وهبوطًا، وكوب الشاي لا يسقط نقطة واحدة تلوث حواف الصينية البيضاء، بخفةٍ كان يلملم الأكواب الفارغة، ويروح ليملأها من جديدٍ، راحت السجائر الخفيفة المحشوة بالأدمغة الرائقة تطوف على الجالسين، يشدون الأنفاس بقوةٍ وحالةٌ من خَدَرٍ تسري في أجسادهم، يتحركون بخطواتٍ بطيئةٍ نسبيًا إلى عالم آخر، ثوانٍ وتنطلقُ ضحكاتهم مجلجلةً كأنهم ما تعبوا في نهار يوم قائظ، كأنهم يملكون العالم فيطيرون بأجنحةٍ من ريشٍ إلى الفضاءات المختلفة، هنا الضحكة تُغلف كل معالم الأشياء، كل شيء يمكن أن يكون ضاحكًا ومضحكًا في نفس الوقت لو نظرت إليه على أنه كذلك، كل ما في العالم يحتمل الرؤيتين، السجائر تُمسك بالرؤوس المتأهبة لتلفها لفًا مُحكمًا متوافقًا مع التفاصيل الصغيرة، تقلب كل الأحزان فتطفو الأفراح والمسرات على قشرة الدماغ، يُصبح الرأس خفيفًا تمامًا، يتطاير نحو عالمٍ وسيعٍ من لذةٍ، أحدهم يُمسك بسيجارةٍ

أخرى ويمنحها "السلمان"، يُمسك بالسيجارة العامرة بمحبته، يُقبلها كثيرًا، ويشمها مغلقا عينيْه ومُطلقا آهة منغومةً، يضع فلترها في فمه ويُشعلها مهيئًا عقله للغوص في بحرٍ من بهجةٍ، يستسلم للتنميل الخفيف الذى يتخلل مسام الجسد، يترك العالم بمشاكله وقذاراته وضجيجه اللانهائي، يسحب الأنفاس بقوةٍ، يدفنها في صدره المُتعب والمحتاج، يدخل الدخان فيطوف برئتيه ويروي عطش المناطق المحتاجة، يتصاعد إلى رأسه فيضبطه على مؤشر الفرحة، ينزل إلى اللسان ويضع عليه الحروف الناطقة باسم "سعاد لبن":

- كانت تلبس قميصها على الجلباب.

يضحكون لفعل الدخان في رأس سلمان حين صوَّر لبس القميص الداخلي على الجلباب الخارجي بهذا الوصف الخاطئ.

يسحب النَّفس تلو الآخرِ ويكتمه مخرجًا إياه على دفعاتٍ، تدور السيجارة على الأفواه، تترك بعضًا من حياتها على كلِّ فم، تنتهي حياتها القصيرة بوصولهم إلى الفلتر، هم الوحيدون الذين يُقدرون حجم الخسارات المتوالية للسجائر، يُقدرون فعلها النبيل وتضحيتها بحياتها بغرض استخراج ولو القليل من فرحتهم.

- يا إلهي.. حين تحس أن هذا الكون كله مخلوقٌ لأجلك، لك أنت فقط، تنسى كل العالم وتهيم في رحاب السماوات، كأن الكون كله مفصلٌ بالضبط على مقاس جسدك أنت وسعاد، أتعرفون الفرق بين سعاد والسجائر؟!

يرد أحدهم:

- قلْ يا كبير.. ما الفرق بين سعاد والسجائر؟!

- السجائر تجعلنا نقلع كل هدومنا ونخرج للعالم عرايا، السجائر المحشوة بالحشيش تجعلنا نرى كل جميلٍ في هذا العالم، أما سعاد فتكتم فينا كل فرحة، هي تقتلنا بالفعل البطيء، صدقوني.. السجائر تُحيينا وتمنحنا جمالًا غير موجودٍ، حتى وإن كان جمالًا وقتيًا.

كانوا ينظرون إليه والدهشة تسرح بحريةٍ على ملامحهم، حديث سلمان ظاهرٌ كأنه موزونٌ لفعل الحشيش، دائمًا ما يتكلم بتلك الحالة من الصفاء حين يشرب.

- صدقوني، أحيانًا أحب السجائر أكثر من سعاد، وتعرفون أيضًا، السجائر لا تجعلني أحتاج سعاد، لكن سعاد تجعلني أحتاج للسجائر.

تنطلقُ الضحكات لكلام سلمان، تتهدل الشيشان البيضاء على الأكتاف، يلملمونها من على الجلابيب التي تخرَّمت بفعل السجائر، ويضحكون بقوةٍ.

حين سألوا جويد لماذا لا يشرب الحشيش أو حتى السجائر غير المحشوة، كانوا يتوقعون قوله بأنه يُصلي ويعرف الله، أو أن المرة الوحيدة التي جرَّبها لم تكن كافية ليُدرك عظمتها، لكنه قال إنه يرفض تلك الفرحة المُصطنعة والتي سرعان ما ستهرب، سيبقى له واقعه بكل ما فيه، لماذا لا يُحاول أن يجعله واقعًا سعيدًا وفرحًا، بدلًا من الهروب المؤقت؟! وشرحِ لهم أن الدماغ يحتوي على مناطق الفرح، وأيضًا على مناطق التعب، كل ما تفعله حين تدخن السجائر أنك تُزحزح المنطقة التي تقف الآن بها إلى منطقة أخرى تحتاجها، والحشيش والمخدرات تُساعدك على ذلك، فلو أنك أقنعت داخلك على أنك سعيدٌ ومبتهجٌ وأنك تلعب في منطقة السعادة أساسًا، لن تحتاج لتلك الأفراح المصطنعة، الوحيد الذي كان يروق له كلام جويد هو حامد.

الشيخ واقفٌ تحت النور المُلقى بكسلٍ تحت العمود أمام المقهى، لم يشأ جويد الاقتراب منه حتى يُناديه، وكان يشعر بأنه سيُناديه، كادَ فضوله يجعله يتقدم من الشيخ، لكنه انتظر، ولم ينتظر طويلًا حتى أشار إليه، وقف وذهب إلى الشيخ الذي سحبه بعيدًا عن النور، أمسك بمخلاته

وفتحها واستخرج منها لوحًا يبدو أنه صُنع من رخام، وعلى اللوح كان هناك رجل يُشبه سلمان، وأمامه بنتٌ تجري ناحية غابة من الأشجار، وقفت البنت وانتظرت مجيء سلمان الذي بدا مرتعشًا خائفًا، حاول التقهقر، لكنه وجد أصحابه فاطمأن، البنت نظرت إلى سلمان الذي وقف مترددًا، أصحابه يُشيرون إليه ناحيتهم، والبنت أيضًا تشير إليه ونظراته تتأرجح بينهما، أشار أحدهم إلى قدمها صارخًا، نظر سلمان فوجدها مغطاةً بالشعر الكثيف ولها انحناءةٌ تُشبه رِجل ماعز، ركضت البنت وهي تحجل كماعز، جروا كلهم وسلمان أحسَّ نفسه بطيئًا جدًّا والبنت تتقدم بسرعةٍ، سلمان يُحاول التحرك وثقلٌ كبيرٌ يربطه بالأرض، كأنه ما عاد قادرًا على التحكم في أعضائه، نظر إلى الأعلى فوجد وجه البنت وقد مُسخ في صورة كلبةٍ، حاول الصراخ لكن لسانه كان ثقيلًا فما قدر، حاول وحاول.

هنا انطفأ اللوح ودسَّه الشيخ داخل مخلاته، وقال لجويد:

- في تلك اللحظة استيقظ سلمان وانتهى الكابوس.

نظر جويد إلى الشيخ وقد أفزعه ما رأى، في الحقيقة إن هيئة الشيخ كانت تُوحي بملامح طيبة، لكن جويد كان خائفًا فعلًا.

- ماذا تريد مني يا مولانا؟!

نظر إليه الشيخ وتكلم بنبرةٍ أحسَّ معها جويد بأن الشيخ لا ينطق كلامًا عاديًّا، إنه يتكلم كساحرٍ، وجويد يستمع كمسحور، كلام الشيخ يجد طريقه بسهولةٍ إلى عقل جويد، فيوقن به ويُحبه، يزيل الشك الذي كان يعربد بداخله مثل دودةٍ هائلةٍ.

- أنا سيد أحلامكم يا جويد، أنا الذي أمنحكم عالمكم المُصطنع والمحبوك عليكم، أنا الذي أدسُّ لكم الفرحة مثل أم يهمها رؤية ابنها ضاحكًا، وأنا الذي أصنع لكم الكوابيس لتنظروا إلى العالم برمزيته وتعرفوا أن هناك أيضًا ما يُقلق، وأحيانًا لإزاحتكم للجهة الآمنة من الطريق، أنا أتمعن في النظر إلى ما تحتاج أجسامكم وعقولكم، وأصيغ كل ذلك في صورة حلم.

كان هناك شيء غير مفهوم يطن في عقل جويد مثل نحلةٍ لا تهدأ، شكٌ كبيرٌ راح يتماوج ويحتل المساحة المبسوطة بينه وبين الشيخ، هل صحيح ما يقوله، هل هو فعليًّا مَن يصنع الأحلام للناس؟ ما هذا الكلام، لكن ما رآه من حلم سلمان الآن، هل هو حقيقة، هل هو فعلًا حلم سلمان؟!!

- دقيقة واحدة يا شيخ!

ترك الشيخ ورجع إلى ناحية سلمان الذي كان لا يزال يحكي عن حلمه مع سعاد، اقترب منه جويد وأمال فمه ناحية أذن سلمان، وحاوط فمه بيده ليمنح الكلام أكبر قدرٍ من السرية.

- هل صحيح أنك رأيت حلمًا بالأمس فيه بنتٌ لها قدم ماعز ورأس كلبة؟

نظر سلمان إلى جويد كأنه يُفكر مليًّا، أحس جويد بأن سلمان غير قادرٍ على التجاوب معه بسبب الحشيش الكثير الذي شربه، دماغه يميل إلى الأمام والخلف من أثره، هز سلمان رأسه بشكلٍ متتابعٍ، الألفاظ كأنما تُعانده فلا يقدر على ترتيب الحروف في كلماتٍ تُناسب الموقف، هنا سحب جويد نفسه وذهب إلى ناحية الشيخ وقال له:

- وكيف تصنع أنت الأحلام يا مولانا؟!

لاحظ جويد انفراجة فم الشيخ عن ابتسامةٍ خفيفةٍ كأنما كان ينتظر هذه الجملة منذ وقتٍ طويلٍ، لمعت عينا الشيخ وأشرق وجهه أكثر وهو يشير إلى جويد:

- تعال معي!

هنا نظر جويد إلى سلمان فوجده يُتابعه ببصرٍ زائغٍ مخطوفٍ، عرف أن سلمان لا يستطيع مفارقة حالة الفرح التي رمى نفسه بين أحضانها.

حُلمُ سَلمَان

في أغلبِ الأوقات التي يشربُ فيها الحشيش لا يغيبُ وعيه تمامًا، وحين كلَّمه جويد كان لسانُه ثقيلًا فعلًا، لكنه لم يكن تائهًا، كان يفتعل الغياب، يجب أن يكون مترنحًا كأنه يُماثل الفعل الحقيقي بفعلٍ زائفٍ، حتى وإن لم تلعب الخمر أو سجائر الحشيش برأسه، حتى وإن كانت كميتها ليست بالكثيرة لكي تسرق منه وعيه، وتُحيله إلى عالم مصنوع من فرح مؤقتٍ؛ يعرف سلمان أن هناك بابًا شفيفًا يقطع التصاق هذين العالميْن، من الأمام الدنّيا بهمومها وناسها، سعاد لبن والأدهم وكل التعب الدنيوي الخالص، ومن الخلف باب اللاوعي، فضاء يتسع إلى نهاية حدود الرؤية، سعادة ترمح هنا وهناك، تقبض منها ما شئت وتبلعه فيحلو العالم، فرحتك هناك تجري وأنت وراءها، تُلاحقها وهي تتقافز كطفلٍ نزقٍ ملقيةٍ ببعض منها على أفواه الحزانى، فضاءٌ لا نهائي وفرحة لا تنتهي إلا حينما يروح مفعول السجائر، كان سلمان يُلاحظ فرقًا كبيرًا بين حلمه والحشيش، الحلم يتجاهله باستمرارٍ على عكس الحشيش الذي يمده بلحظات الصبر على تصرفات الدنيا، الحلم دائمًا يصر على تجاهله حتى بعد التفكير العميق الذي يرشه على دماغه لتقع سعاد في شَرَكه، يستحلب هيئتها ويعيشُ معها يوميًا قبل النوم، يضع في حسبانه أن تكون هي آخر ما يُفكر فيه قبل أن يقرع بوابة النوم، ثم يُفاجأ بأنه يحلم، أنه يخنق الأدهم أو يأكل لحمًا نيئًا، أو يصطاد سمكًا في ترعةٍ وقت السدة الشتوية، أو يذهب إلى أماكن لا يعرفها ولا يهمه– حتى- معرفتها، الطامة الكبرى هي الكوابيس، فبدلًا من تبديل الحلم بامرأةٍ أخرى يعيش معها ليوم- إن كانت سعاد تُعانده بهذا الشكل وتضن بمجيئها عليه- يرى بنتًا بوجه كلب ورجل ماعز، كانت البنت تجري ناحية غابةٍ من أشجارٍ، وقفتْ وانتظرتْ، كان خائفًا يرتعش مثل عصفور مبللٍ في مواجهة شتاءٍ قارسٍ، يُقدم رِجلًا ويُؤخر أخرى، أصحابه كثيرون يدسُّون فيه شيئًا من طمأنينةٍ، البنت وقفتْ ونظرتْ، لم يُحاوِل الجريِ وراءها وأصحابه يشدونه إليهم بالقول، أشار أحدهم إلى قدم البنت، نظر فوجدها غائبةً في الشعر الأسود الكثيف، كانت بالضبط تُشبه رِجل ماعزٍ، هنا ركضت البنت، وشَعَر لحظتها بثقلٍ مفاجئٍ كأنه يتحرك وقدماه مربوطتان بلوحٍ من الأسمنت، كان بطيئًا جدًا كأنه ما عاد قادرًا على التحكم في أعضائه، كأن أعضاءه تتعاونُ معها ضده، نظر إلى الأعلى فوجدِ البنت وقد تبدل وجهها إلى وجه كلب ببوزها الطويل ونابيْها الظاهريْن، كانت تنبحُ والزبد يسيلُ من بين شدقيْها، حاول الصراخ فلم يستطع، استيقظ من نومه مفزوعًا، وَجِيبُ قلبهِ يتصاعدُ بعنفٍ، أخذ ينتفض مثل حمامة تبلل جناحاها فما عادت قادرةً على الطيران، صبر كثيرًا وهو يُبسمل ويُحوقل حتى عاد إليه الهدوء وانتظمت ضرباتُ قلبه.

كانت اللحظات التي يقضيها مع شلته في مقهى البلم تُعيد إليه كثيرًا من توازنه النفسي، تمده بضحكاتٍ تُغطي مواضع الفِكر التي تنبشها يد القلق، كان تخيله لسعاد– حتى وإن لم تأته في نومه- يمنحه أرضًا خصبةً ومُهيأةً لغرس أفكاره بإبداع جميلٍ، كأنه يُمسك بعجينةٍ يُشكلها فتتمحور حسب رؤيته، كان يُعجبه إبداعه على مستوىً تخيلِ الجسد، لم تكن سعاد بنتًا عاديةً حتى يمنحها نومًا عاديًا، صحيح أنه لا يعرف إلا نوم العازب، لكنه سيحاول أن يجرب كل الطرق التي يتخيلها، إن جاءته سعاد أبدًا لن يمنحها إلا ما يليق بها، سعاد، تلك التي في مرورها تقف الأشياء، تجاملها الريح وتسكت حتى تمنح الناظرين صورةً نقيةً لا يشوبها غبارٌ، تتنهد الشمس وترمي عليها أشعة نورانيةً خاليةً من الحرارة؛ حتى لا تسمح لترابٍ فائرٍ أن يختلط بعَرقٍ فيتعكر صفو بياضها، كانت خطوتها متزنةً تقلع الآهات من الشباب كأنها تخطو على صدورهم، كان يوم رؤيتها عيدًا ويوم ضحكتها عيدًا ويوم رقصها عيد الأعياد.

سلمان سمع كلام جويد حين حكى له عن البنت التي لها رأس كلب ورِجل ماعز، سلمان يعرف أن عبد القادر هو من حكى لجويد عن الحُلم، هذا أمرٌ لا شك فيه.

- سأفتت عظامك يا عبد القادر يا ابن الكلب!

قالها وأخرج سيجارة حشيشٍ وأشعلها، أخذ يتلذذ بنفخ الدخان في الغرفة، كان الدخان يتماوج في الفراغ ليرسم أشكالًا كثيرة، يُدقق في التمويجات فيقترب تارة ويبتعد أخرى ثم ينفخ بطريقةٍ معينةٍ بضم الفم أحيانًا وفتحه على مدى اتساعه أحيانًا، أخذ الدخان يتشكل في صورٍ عديدةٍ، رأس قرد بلا جسدٍ، ذيل حصان، رأس آدمي بغيرِ أذنٍ وبعينٍ واحدةٍ، قدم ماعز، تضايق جدًّا حين رأى قدمِ الماعزِ، وطوَّح يده في الهواء قاتلًا كلَّ مخلوقَّاته الدخانية، فتح الشباك ليمنح للهواء فرصةً كاملةً لاقتلاع مخلوقاته وتفتيتها وسحبها، صبر قليلًا ليمد عقله لعالم اللاوعي، مط جسده ونفض عقله مهيئًا الاثنين لغزو مرتقبٍ وفرحةٍ تتشكل الآن في طريقها للمجيء، حاول النوم فلم يستطع، قام وبدَّل ملابسه، وسلكَ الطريق باتجاه بيت عبد القادر.

الخُور

مشى الشيخُ في الطريقِ الذي يُطل عليه بيتهم، والذي يمتد حتى يرميه في البراح الكبير المُمسك بخور "أبو جدولٍ"، المساحة اتسعت والأرضُ المبسوطة يُنيرها القمرُ الذي فرش ضياءه فمنح سيرهمِ رؤيةً مجانيةً، صحيح أنها بالكاد تكفي لكنها أفضل بكثيرٍ من الظلام الكامل، النورُ كان يُزيح بعضًا من القلقِ الكبيرِ في نفس جويد من ناحية الشيخ، هل هو مَن رآه في الحُلم؟ يكاد يُقسم أنه هو، ببسمته التي تلتصق بشفتيْه لتظهر أسنانه البيضاء ذلك البياض الشاهي الذي لا يُخالطه عكار، كلامُه الجميل والذي ينفذ إلى مكان التصديق في عقله، نظرته التي تعرف طريقها لتُعريه وتفحص عُمقه بدقةٍ، أحجار الجبل في الأمام تتعاون مع بعضِها وترسم صورًا يتبينها جويد حين يُدقق فيها، كلب بلا أقدام أو ذيل، خنفساء كبيرة، جسم حصان بغير رقبةٍ ولا مؤخرةٍ، جويد انتبه إلى أن الشيخ مشى مشوارًا كبيرًا في جسم الطريق، وكان الشك يزيد داخل جويد كلما زاد المشي، يكبر ويتعملق مثل دودةٍ هائلةٍ تأكل كل مَواطن الاطمئنان، كان ينظر إلى الشيخ وفضوله يكاد يقتله بالأسئلة عن الحلم، كيف يصنعه للناس؟ قدمه تُصبح ثقيلةً حين يصلُ إلى هذا الحد، الأمر مُخيفٌ والطريق طويلٌ ومن الممكن أن تكون في الأمر مكيدة، لكن ملامح الشيخ تُريحه، ملامحه تقول إنه ليس من الناس التي تدس الخُبث في تصرفاتها، ثم إنه رأى أحلامًا تؤكد أنه بالفعل ملك الأحلام، مثل الحلم الذي زاره فيه، إذن لماذا القلق؟ يُسرع ليلحق بالشيخ حين يتذكر أنه جويد العاقل الذي يزن الأمور بحكمةٍ، كيف يخاف من الشيخ وكيف يُنكر نظرات المحبةِ التي تُلون عينيْه مثل نظرات أب حنونٍ، ربما يخافُ لأن الشيخ ما زال مجهولًا بالنسبة له، خوفٌ غريزي ينبتُ بالفطرة ويكبر ويتعاظمُ ليغزو بعساكره المدربة كامل التفكير، والحقيقة أنه خوف لا معنى له تمامًا، لكنه لن يسكت، الطريق طال والشيخ لا يتكلم.

- هل الطريق طويل يا شيخ؟
- اصبر يا ولدي!

قالها الشيخ فأحس جويد بأن لها معنى مغايرًا، هو "لا تسأل مرةً أخرى"، أخذ يُدقق في الكُرة القمرية فوق الجبل، نورها يمنح الأشياء بعضًا من ملامحها الطبيعية، تظهر الصخور الليلية وبعضها يعكس النور فتبدو مثل مرايا صغيرة متناثرة على مد البصر، في البعيد كان هناك ذئبٌ يعتلي الجبل، وقف أمام القمر ومدَّ بوزه الطويل وأطلق النداء العتيق لبني جنسه، طبيعي جدًا أن يتعثر جويد، وطبيعي جدًا أنه كاد ينكفئ عدة مرات لولا إمساك الشيخ به، كان من المفترض أن يحدث العكس، أن يُمسك هو بالشيخ حال وقوعه، يبدو أن كثرة مشي الشيخ على الطريق جعلته يحفظ ملامحه تمامًا، جويد كان أيضا عارفًا بتلك الطرق، إنما ليس خبيرًا بها كالشيخ، ثم إنه لم يكن يسلك هذا الاتجاه كثيرًا، حتى وإن مشى فيه فيكون ذلك نهارًا، حينها تتولى الشمس عن الإفصاح بقوةٍ عن تضاريس الأشياء، مقام الشيخ أمين يبتعد الآن بقدر مائة متر، العرسان الجدد يأتون للشيخ أمين، يأتون نهارًا مُحملين بالدعوات بزواج مباركٍ، الشيخ له يدٌ في فرحة الزوجة، ودوام تلك الفرحة، هذا ما يعلمه كل الناس في النجع، تأتي العروسُ فيُباركها الشيخ، يمنحها رضاه فيتم الموضوع، وعدم مجيء العروس إلى الشيخ يعني سخطه، الزيجات غير المختومة برضاه تكون سريعةً ومحكومًا عليها بالفشل، يذكر جويد أن "عبد الباقي أبو جحشة" قال إن الذهاب إلى الشيخ وطلب مباركته للعروس كُفرٌ صريحٌ، وحلف بالله ألا يجعل زوجته المستقبلية تأتي إليه وسينسى النجع تلك العادة القبيحة والتي تبدو مثل دمل خبيثٍ، عبد الباقي عقد قرانه وحكم على عروسه بعدم المجيء في ليلة الدخلة فقالت له العروس إنها ستروح للشيخ فحلف بالطلاق أنه لن يدخل بها إن راحت للشيخ، حينها دفنت البنت الرايات المخضبة بالحناء والشموع وصلت لله وبكت وقالت قدام الناس: "اللهم لا تُحاسبنا بما فعل ويفعل الجاهلون منا، هؤلاء الذين لا يعرفون قيمة الأولياء"، حينها ابتسم عبد الباقي ولم يرد، وقال إنه سيعيش ولا يريد معرفة الأولياء، ومرَّ شهران على زواج عبد الباقي وتشجع الرجال في النجع وقالوا الشيخ لم يفعل شيئًا، وفكروا كثيرًا أن الشيخ موجودٌ في مكانه منذ زمنٍ بعيدٍ فما المانع ألا يكون هناك شيخٌ من الأساس، وأن يكون المقام قد شيده أحدهم ليرتاحَ فيه من تعب السفر والتنقل بين البلاد، وحينها قال آخرون إذن من الذي يستجيب للعاقر إن تقلبت على حُصر الشيخ لينتفخ بطنها وينقلب حزنها فرحةً، ومن الذي يزكي الدعوات ويجعلها مستجابةً من الله إلا اسم الشيخ؟ وذكروا أن سر الليالي التي تُقام للمشايخ الغرض منها هو انبساط الفقراء وأكلهم وذكر الله فيها، لكن عبد الباقي زحزح الأمر بعناده والشيخ لن يسكت على هذه المهزلة، وبعد بضعة أشهر فوجئ النجع بعبد الباقي وهو يجري عاريًا إلى الشيخ أمين ويبوس الحُصر بقوةٍ ويتمرغ عليها، وقال الناس إن السبب يرجع إلى أن زوجته لم ولن تنجب فقام أبوه بالحلف- عليه- بالطلاق ليزور الشيخ، وكانت كرامة للشيخ أن يخرج عبد الباقي عاريًا كيوم ولدته الأم، ليذهب ذليلًا وخانعًا للشيخ، والعجيب أن بطن زوجته امتلأ مما حدا به إلى زيارة المقام كسيرًا وإهداء الشيخ الحصر الجديدة والشموع والرايات المُخضبة بالحناء، بل وقام ببناء مزيرةٍ كان يملأها بالقِربة بنفسه كلما فرغت.

الآن عبرا من قدام المقام بصخوره المتكومة فوق بعضها لتُشكل سياجًا صغيرًا يلف المقام، من حوله وعلى مسافاتٍ متقاربةٍ ومتباعدةٍ تبدو الصخور الكبيرة التي طردها الجبل من حضنه مثل بثورٍ في جسم الطريق، كان سكونُ المكان غير طبيعي، زاد وجيبُ قلب جويد، وذلك جعله يتباطأ مرةً أخرى، صوتُ الحصى وهو يصطك ببعضه مدفوعًا بحركةِ أقدامهم هو من يُشكل جروحًا في جسم السكون، لماذا يثق بالشيخ إلى هذا الحد؟! ما الذي سيجنيه الشيخ من إحضاره إلى هنا،

أيكون الشيخ مغربيًا ومحملا بداء الحلم الكبير بالغنى عن طريق المقابر؟ ربما سيذبحه ويُقدمه كقربان بشري لإلهٍ فرعوني مُقدس يمده بالفلوس الكثيرة بعد نيله رضاه الكبير، نفض الأمر عن ذهنه، الشيخ كبير في السن، لو كان يُفكر في ذبحه لصرعه بيدٍ واحدةٍ، ثم إنه لا يُمكن لتلك السماحة المفروشة على وجه الشيخ أن تُفكر في المكائد، ولماذا يتعب الشيخ وينزل إلى النجع، كان يكفيه أن ينتظر أحد المارين من هنا للجبل الأحمر عن طريق الخور، إنه رجلٌ صالحٌ كما تقول سيماء وجهه، وهو مطمئنٌ تمامًا له من تلك الناحية، وجهه يكاد يشع نورًا، لا بد لمثله أن يكون رجلًا صالحًا، مثله مثل الشيخ زين العابدين والشيخ الجعفري والشيخ يوسف أبو سلمة، والشيخ أبو بلحة، وجهه ينطقُ بملامح الرضا التام، الحقيقي أنه أحب تلك الصدفة التي جمعته بالشيخ، وهنا لم يقدر جويد على مقاومة ذلك السؤال الواقف على طرف اللسان.

- هل جاء معك أحدٌ من قبل إلى هنا يا شيخ؟ أم أنني أول واحد تقوده الصدفة للمجيء؟

لم يُفكر الشيخ، فقط نظر إلى جويد كأنما يُحاول معرفة شكل ملامحه على أثر السؤال الذي ألقاه، وابتسم متابعًا دون حتى أن يتعثر في الأحجار الصغيرة التي ترتمي على جسم الطريق.

- لا يوجد شيء يُسمى صدفة يا جويد، كل شيء مُخطط له من البداية، ربما يبدو لك أو لأي أحدٍ في وقتها أنه صدفة، إنما الحقيقة أن كل شيء مُخطط له بدقة متناهية.

كان جويد يُفكر في أنها صدفة، ربما الشيخ لا يعترف بالصدفة أو أن لها مُسمى آخر عنده مثل التوفيق الإلهي و.....

- لا يوجد شيء خُلق عبثًا يا جويد، ولا يصح أن تقول لماذا أنا بالذات، لا يوجد ما ليست منه فائدة، أنت تحكم على الأمور من وجهة نظرك النابعة من رؤيتك، وقد خُلق الإنسان ضعيفًا ومحدودًا فكيف تكون رؤيته هي الأحق؟

الذي يُضحكني أن الله وهب الإنسان العقل، الله هو الصانع للعقل، والإنسان هو المصنوع، الله الذي صنع تفكير الإنسان داخل العقل بالأخص، قل لي كيف للإنسان أن يُفكر في الله بنفس العقل الذي منحه الله للإنسان؟!! هذا شيء عجيبٌ، الله منحك الوجود منذ الأزل، ووالى عليك الأمم لتعرف قصصهم من خلال كتب أنزلها إليك وأبصرك أنها معجزات لا تقدر على الإتيان بمثلها، الله اصطفى من شرائح الناس خلقًا أعدهم لتحمل الألم بصبرٍ عظيم، منحك كل شيء في صور معلومات وجاء الإنسان ليُفكر بطرقٍ أخرى فيقول إن الله خلَق القرود وطوَّرها لتُصبح بشرًا، وما الذي كان يعيب الله حتى يُطور من نسل ولا يخلقه مباشرة، إن كان هو سبحانه من خلق القرد فلمَ لا يقدر على خلق الإنسانِ في أجمل صورة؟! هذا تفكيرٌ عجيبٌ، كما قلت لك يا ولدي لا يوجد شيء عبثي، الإنسان مخلوقٌ ضعيفٌ إلى أقصى حدٍّ مُمكن، فلا أعرف كيف يؤمن الإنسان أن رؤيته هي الأحق.

كتم جويد ضحكةً كادت تفلت من فمه حين قال الشيخ الإنسان، وكاد يقول للشيخ كأنك تنفي عن نفسك مجيئك من صُلب آدم، لكن الشيخ أشار إلى البعيد حيث شجرة حنظل تبدو واضحةً كشبحٍ أسود.

- في مرة من المرات كانت هناك شجرةٌ مثل هذه، زحف الناس والعمران امتد ليضيق الفراغات الكبيرة، حتى وصل العمران إلى مكان الشجرة في الطريق، تساءل البعض ما أهمية الشجرة ووجودها في الطريق؟ على الرغم من أن الشجرة نفسها موجودة قبل زحف الناس، في الحقيقة يا ولدي أن الشجرة وُلدت وكبرت في انتظار حطاب سيأتي ليقطع جسمها ويبيعها ويقتات بثمنها، الشجرة وُلدت قبل ولادة الحطاب، لكن وجودها نفسه كان من أجل الحطاب، مَن وضعها كان يعلم بأن هناك عمرانًا سيزحف، وناسًا ستسكن، وحطابًا سيقطع، الحطاب سيصنع الكنبة والدولاب والمنضدة والسرير، في النهاية هي سلسلة بدايتها الشجرة ونهايتها أحد

مكونات البيت، وتفاصيلها تشمل الحطاب والدّهان والنجار والعمال، لا يمكن أن تقيس كل شيء على وجهة نظرك المحدودة، وإلا فإنك ستتساءل كثيرًا عن وجود شجرةٍ بمكانٍ قفرٍ لا يوجد به ساكن، مع أن لها ظلًا مجانيًا تطرد به الشمس من على وجه المسافر، ستظل محدودًا مهما غيرت من وجهة نظرك في طريقة عيشك أو لبسك أو حتى تفكيرك، مهما تطورت فأجريت الحديد على الماء أو ركبت الحديد الطائر أو أجريت الحديد على قضبان، مهما رحت للسماء ومهما نزلت أسفل الأرض.

تنهَّد الشيخ والتفت إلى جويد وتوقف واستدار ليواجهه وأمسك بكتفه وبصَّ في عينيْه مباشرة:

- هل تعتقد أن أكل آدم من الشجرة وعدم رضا إبليس للسجود لآدم كان ليخفى على الله؟.. الله خلقهما وهو يعرف تمامًا أن هذا سيحدث، كان يعلم بأن آدم سيأكل من الشجرة بإغواء إبليس، ووجود الشجرة نفسها في الجنة وهي التي تكشف السوأة كان من أجل آدم، تقابل آدم وإبليس كان لصنع عدوين تتبارى الأجيال من بعدهما، فيبقى آدم الطيني ليأمره الله بالأفعال الطيبة، ويبقى إبليس المُحمل بأدوات العصيان، ليجعل أبناء آدم يقعون في الخطيئة، كل له دوره، لكن الله لم يُجبر آدم على الأكل من الشجرة، ولم يُجبر إبليس على عدم السجود، ولو تكرر السيناريو آلاف المرات لما رضي إبليس بالسجود ولما التفت آدم لنصائح الله بعدم الأكل من الشجرة، الله منح لكل المخلوقات قدر العلم الذي تقدر عليه.

- نعم وما أوتينا من العلم إلا القليل.

مشى الشيخ وهو يُتابع:

- الإنسان مجبولٌ على الخطيئة يا ولدي، مخلوقٌ للخطأ والعودة إلى طريق الله، حين يُخطئ فهو مُقَدَّر لإتمام مشيئة الله، وحين يؤوب إلى الله فهو ما يُحبه الله، والذي يقدر على التحكم في شهواته يكون عند الله أفضل من الملائكة المُحملين بالطهارة رغمًا عنهم، وإذا حث آخرين على الخطيئة فهنا الإنسان أخبث من إبليس، لأن إبليس نفسه مجبولٌ على محاولة جعلك تُخطئ، لكن الله لم يجعل له سلطانًا عليك ووصف كيده بالضعيف، أي أنه لا يقدر على إجبارك على الفعل، لكن الإنسان نفسه من الممكن أن يُجبرك على الخطيئة. يا ولدي أنت محملٌ بأنصاف الأشياء نصف شر ونصف خير ونصف حب ونصف كُره، ولك الأمر في المشي تجاه ما يُكمل هذه الأنصاف، شرٌّ كاملٌ، خيرٌ كاملٌ، حُب كاملٌ، كُره كاملٌ، وإلا فإنك ستتساءل عن جدوى خُلق الرجل المُعوق، والطفل الذي يموت فور ولادته، والعقارب، والثعابين، وجدوى خلق بعض الناس الحاقدة، والحاسدة، وخلق الثعالب، والذئاب، والأسود، وخلق الجن، والملوك، وسر المذابح، والفتن، والثورات، والحروب، وسر فرحة البعض الدائمة وحُزن البعض الدائم، والكثير يا ولدي مما له حكمةٌ لا يعلمها إلا خالقها.

قالها الشيخ وكاد جويد يسأله سؤالًا آخر لولا أنه انحرف وصعد إلى الجبل، كانت هناك في الأعلى ظلالٌ لنورٍ يفرش نفسه على جزءٍ كبيرٍ من القمة، لكن مصدره غير ظاهرٍ، لم يكن هناك طريقٌ ممهدٌ للصعود لأعلى، يعرف جويد أن كثرة الصعود والنزول للأقدام في اتجاهٍ واحدٍ للأعلى أو الأسفل، تتكفل بنفسها لصنع طريقٍ يكون معروفًا للناس، أهي المرة الأولى التي يصعد فيها الشيخ إلى الجبل إذن؟ كيف يصعدُ دائمًا ولم تمهد قدمه لطريقٍ؟! جويد كان يضع قدمه في المكان الذي تتركه قدم الشيخ العارف بالضبط أين يضع قدمه، كانت قمة الجبل تنزل إلى أسفل كلما صعدا، وقبل القمة وقف جويد وراح يُبعثر أنفاسه اللاهثة ثم أكمل وراء الشيخ، وفجأةً برز مصدر النور، نورٌ مبهرٌ كأنه قنبلة ضوئية ظل انفجارها مستديمًا، لاحظ جويد أنها ليست قمة الجبل، لكنه كهفٌ مُنيرٌ مُمهد ما أمامه من مساحةٍ كبيرةٍ تحجبه عن أعين المارين أسفل الجبل، الكهف له بوابة صغيرة، دخل الشيخ، مشى جويد وراءه، القمر تركهما عند الباب

وسلمهما لذلك الألق المُبهر، خطا جويد إلى عمق النور، ارتعش قليلا حين نظر إلى الكهف، وكأنه كرةٌ نهارية نسي الليل ضمها إليه، الباحة كبيرة وأرضيتها مصقولة لامعة تعكس النور لتغشى عينا جويد، كانت أمامه ثلاثة صفوف من الأرفف تُشبه الطاقات كأنها قطعت بعناية من جسم الجبل، الصفوف الثلاثة تمتد وتلتف بالباحة حتى تشتبك مع بعضها البعض، وبداخل الأرفف كانت هناك ألواح كتلك التي رأى الشيخ يضعها في مخلاته القماشية ويُشاهد عليها الأحلام، جويد لاحظ أن أرضية الكهف مقسومة إلى مستويين تفصلهما درجةٌ رخامية بلونٍ أبيض يزججها اللون الأسود ليشبه خيوطا دخانية زادتها جمالًا؛ المستويان أملسان تمامًا وخاليان من أي تكلسات، أما باقي الجدران فهي من لون الجبل غير أنها شُذبت بعنايةٍ حتى باتت كالمصقولة، الشيخ تقدم إلى آخر الكهف، كان هناك مدخلٌ آخر توارى عن نظر جويد، وقف ثواني يُدقق في الألواح المرصوصة أمامه، أمسك بأحدها فانزلق الحلم بنعومةٍ، أمسك بالكثير من الألواح وراحت الأحلام تنزلق على واجهاتها اللامعة والمُنيرة، كانت الأحلام تُشبه حكاياتٍ طريفة بغير كلام؛ أحلام عادية وجنسية وأحلام غنى وكوابيس، كل أنواع الأحلام كانت موجودة، كان جويد يقرأ الأسماء المكتوبة على الألواح، وكلها مكتوبة باسم الشخص ويليه اسم الأم، سعدية بنت حكيمة، سليم بن زنوبة، حامد بن راسية، سيد بن جميلة، سلمان بن هنية، لماذا الأسماء للأمهات وليس للآباء كما هو معروفٌ وشائع؟! وكانت هناك ألواحٌ سوداء مُظلمة تمامًا مركونة في آخر الكهف، أمسكها فلم تنزلق أحلامٌ عليها، وحين قرأ الأسماء عرف أن أصحابها ماتوا فانطفأت تمامًا، كأن الألواح بها أرواح الخلق، كل كلام الشيخ كان حقيقيًا، فرح جويد وأخذ يُدبر في نفسه خططا كثيرة لأحلام قادمة سيستأذن الشيخ ليمنحها للناس، نادى الشيخ عليه فأعاد الألواح إلى مكانها ثم دخل من الباب الذي رآه يدخل منه، وقف جويد على المدخل وهاله كم الجمال المتجسم أمامه، كانت هناك بركة بها ماء، ومن حولها تتصاعد ألسنة نارية، وهناك أشياء تُشبه يرقاتٍ صغيرةً نورانية لامعة تتصاعد بخفة من النار، تنطلق من حول البركة وتموت في السماء القريبة إليها، لكنها تخطف البصر تمامًا بتمايلها ودورانها حول بعضها، محيطة بالفراغ فوق البركة تمامًا، انتبه إلى أن الشيخ يقف أمام طاقاتٍ كثيرةٍ مليئةٍ بالأوعية البيضاء الصغيرة، اقترب منه جويد، ونظر فرأى الأوعية مليئة بالتراب، كان ترابًا عاديًا يُشبه كثيرًا ذلك التراب الذي يكسو قمم الجبال بنهاية الخور بألوانه الكثيرة، ترابٌ مائل إلى الحُمرة وتراب عادي، وآخر يميل للزرقة، وأصفر يشبه الرمل الناعم، وهناك أوعيةٌ كثيرةٌ جدًا مليئة بالرمل الخشن، وكل وعاء منها مكتوبٌ عليه اسم صاحبه، وهناك على رف صغيرٍ توضع آنية مختلفة عن الباقين، كانت مقعرة من الداخل ولها خطوط عميقة بداخلها.

- ما رأيك يا جويد؟
- في البداية أريد أن أسألك سؤالًا!
- تفضل!
- لمَ كل الأسماء يأتي لقبها باسم الأم، جويد بن شفيقة، حامد بن راسية، ولمَ لا تكون الأسماء، جويد بن حمدان، حامد بن عبد العاطي، وهكذا؟
- أنا أسطر الحلم هنا باسم الأم، لأن الأم واحدة، أما الآباء فمن الممكن أن يكونوا كُثُرًا، حتى لو كانت الأم زانية من خلقٍ كثيرين فهي لن تحبل إلا من حيوانٍ منوي واحد، إذن فالأم معلومة لكن الأب غير معلوم، ربما لو كتبت لوحًا باسم جميل بن عبد القادر فلن يذهب الحلم إلى أحد، لأن الأب من الممكن أن يكون غير عبد القادر نفسه لو كانت أمه زانية وحملت من شخصٍ غير أبيه عبد القادر، هل فهمت؟

تلاحقت إيماءات جويد وهو يهز رأسه للأسفل، ثم سأل الشيخ:

- كانت هناك عدة أحلام ذكرها الله في القرآن و...

فجأة تغيرت ملامح الشيخ فانشَدَّ الوجه وبرقت العينان بغضبٍ ليُشكل وجهه لوحةً صارمةً، رفع الشيخ إصبعهِ ووضعه على شفتيه.

- صه.. قلت لك إني أصنع أحلامًا، لكنني لا أصنع الرؤى، فرقٌ كبيرٌ جدًّا بين الحُلم وبين الرؤيا، وضوح الحلم نفسه وكم الوعي فيه لا يُحيله بالضرورة للرؤيا، عندكم في النجع مثلًا حين تحكي لأحدهم عن حُلم يسألك عن وقت وقوعه، هل هو قبل الفجر أم بعده؟ فقبل الفجر يكون رؤيا، أما بعد الفجر فيكون عاديًا، وهذا خطأ كبير جدًا، الحلم الواضح هو حلم حتى إنك في بعض الأحيان لا تتذكره تمامًا، ويجري على ذاكرتك كطيفٍ مضى عليه وقتٌ كثيرٌ، فتحك رأسك ولا تعرف أين رأيت هذا الشيء من قبل؛ أما الرؤيا فهي ساطعة كشمس يوليو، الرؤيا حسية وليست حُلمًا عاديًا، وهناك درجاتٌ حتى في الحُلم، فحين يرتقي الرجل العادي إلى ولي مثلًا فإن أحلامه ترتقي معه أيضًا، ومن هنا تختفي ألواحُه تمامًا ليكون ما يراه عبارةً عن إشاراتٍ خفيةٍ، ستتعجب كثيرًا حين تعرف أن الولي من الممكن أن يرى شيئًا يدورُ في زمانه الحالي تمامًا وبنفس الكيفية، يعني لو أن ولدًا رفع سكينًا في وجه آخر فإن الولي يغفو قليلًا حتى في اليقظة، ولا يشترط في المنام، ومن الممكن أن يرى الولد ويعرف مكانه بالضبط ليقوم ويداهمهما ليمنع حدوث تلك الكارثة، لو لم يكن مُقدرًا حدوثها، وهناك الكثيرُ والكثير، يا بني الأولياء تُطوى لهم المسافات ويرون بنور الله فتتضح لهم الدنيا على حقيقتها، هم اقتربوا فعرفوا والمعرفة لا تكون إلا لمن أدرك، ومن أدرك قَبِل، ومن قَبِل تتنزل عليه المعرفة الإلهية مثل عون ويد، بصيرتهم رؤيتهم وكشفهم رونقهم ومعرفتهم دينهم وديدنهم، هم عرفوا الله فاجتباهم وخصهم، الأولياء أحلامهم كرامات استحقوها يا ولدي، هذا عن الأولياء، فما بالك بالأنبياء، أحلامهم ليست أحلامًا، إنما رسائل إلهية بها أوامر ونواهٍ، رؤيتهم فعلٌ حقيقي، أكثر من مجرد وعي لبُشرى، هناك طاقةٌ روحيةٌ تملأ أجسامهم، ارتياحٌ ويقينٌ يُريح أنفسهم، يا ولدي هناك مصادر وإشاراتٌ تعرف بها الفرق بين ما رأيت هل هو حلم أم رؤيا أم إشارة إلهية؟! ولا يشترط به الوضوح أو حتى التفكير الداخلي الكامل في الحلم، فهنا يُمكنني صنع هذا للبشر العاديين، إنما الأحلامُ الأخرى لمنٍ هم أعلى منا فلا يُمكننا التصرف فيها.

ثم سحب الشيخ "قرمة" خشبيةً مركونةً في زاوية الحُجرة وجلس عليها وهو يُشبك كفيه على ركبتيه ويهز جسده إلى الأمام والخلف.

- الأحلام دائمًا ما تمنحك كل التفاصيل اللازمة لمرورها إلى عقلك وتصديقها والإيمان بها، مثلًا من الممكن أن أصنع لك سريرًا يُشبه سرير نومك دون الإفصاح عن باقي مكونات حجرتك، وأقنع وعيك الداخلي أنك في حجرتك، لأن سريرك لحظتها يكون قد أخذ بُعدًا رمزيًا أو تجريديًا، لا يهم باقي التفاصيل الصغيرة المُستجدة، فأنت مثلًا إن اشتريت دولابًا جديدًا ووضعته في حجرتك ورأيته في الحُلم فربما لن تقتنع تمامًا أنه يدور في حجرتك، لأن العقل هنا لم يأخذ الوقت الكافي ليتذكره ضمن الأشياء التي خزَّنها من واقع مرور يومي على مكونات الحجرة، ومن واقع رؤية تتجدد في كل مرة ليحدث تخزين تلقائي في الذاكرة، ومن الممكن كذلك أن ترى الدولاب وتقتنع أنك في حُجرتك فقط حين يشير الدولاب إلى شيء رمزي، مثل زواج قادم، هي مجرد فكرة أمررها لوعيك فتصدقها، لأن وعيك في الأساس غير موجودٍ، وهناك وعي أكبر منك يتحكم فيك، إذن لماذا لا يمكنك استخدام عقلك أثناء الحلم؟ سأقول لك، لا يمكنك استخدام عقلك لأن العقل هنا وعي جزئي من وعيك الكلي، اتجاه واحد فقط للاتصال، ليس هناك مردودٌ، ولا تستطيع أن تجيب عن أسئلةٍ، أو أن تُفكر حتى في رد، حتى الرد دائمًا ما يكون مجهزًا، وهو ليس من صنعك لكنك تكون مجبرًا على استخدامه للرد على سؤال سيُطرح دون النظر إلى

إيمانك من عدمه، لكنك حين تستيقظ ستدرك أن هذه الإجابة هي إجابتك ونابعة من قناعتك، لأنك في كل الأحوال لا تمتلك القدرة على الرد بوعي كامل، أما في الأحلام التي بها تراب نصف الوعي، فلا بد من تمرير الحقائق إلى وعيك- ليس وعيك الكامل بالطبع- لكن ينبغي عليك أن تدرك ما الذي يريده منك الحلم حتى تستطيع فك شفرته ومعرفة ما جاء به.

سكت الشيخ، فحك جويد ذقنه قليلًا:

- وكيف تعرف ما الذي يحتاجه الخلق في أحلامهم؟ أم أن أي حلم من الممكن أن يكون متاحًا لأي أحدٍ؟

ضحك الشيخ بصوتٍ عالٍ واهتز جسده كثيرًا أثناء الضحك:

لا يُمكن بالطبع أن يكون حُلمك متاحًا لأي أحدٍ، فحُلمك أضبطه على مقاسك أنت فقط، كل شخصٍ يختلف عن الآخر في طريقة التفكير وحتى الرؤية للأمر الواحد، وتقييمك لأمرٍ ما يختلف عن تقييم الآخرين لنفس الأمر، نظرتك أنت مثلًا لقتل البنات أن بها خطأ كبيرًا، وغيرك ينظر إلى المعنى المُراد به الأمر وهو حماية البنات من الوقوع في الخطيئة، وغيرك ينظر إلى أن هذا كفر لأنه تجسيد حقيقي لكلمة ظل الله على الأرض، فالله وحده من يملك حق العقاب للمخلوقات، والشرائع كلها ذكرت العقوبات للمُحصنة وغيرها، على اعتبار أنه لا فرق بين أنثى وأنثى، لكن البشر دائمًا يُخطئون ولا تكون نظرتهم موحدة تجاه البنات كلهن.. هنا أنا أصيغ الحلم بحسب الوعي والرؤية فأنا أعلم بطرقٍ معينةٍ ما يحتاجه الخلق في أحلامهم، وأصيغها على صورٍ مختلفةٍ كل الغرض منها هو تمرير شيء ما إلى وعيك، كأن ترى مثلًا كلبًا يُكلمك في النوم، هنا الكلبُ لا يرمز إلى الكلب نفسه، لكن إلى المعنى الحقيقي الذي يُمثله الكلب في عقل الشخص، فمن الممكن أن يكون الكلب رمزًا للوفاء لو جاء يلحس ساق صاحبه بلسانه، ومن الممكن أن يكون رمزًا للشيطان لو جاء بلون أسود، نباح الكلب نفسه في الحلم- وهو المعروف بوفائه للإنسان- من الممكن أن يكون نذير خطر يقترب، أنا أوجهك في الحلم للصورة التي أحب أن أريك إياها، الكلب واحد والمعاني كثيرة، لكن قل لي مثلًا ما الذي سوف تستنتجه حين ترى كلبًا يكلمك في النوم أو قطة تمشي على خمسة أرجل، أو رجلًا له أربعة أقدام ولكل قدم عشرة أصابع؟ هل هذه الأحلام ستنفي فكرتك الحقيقية عن الكلب العادي أو القط العادي أو الإنسان العادي؟!

هزَّ جويد رأسه بالنفي عدة مرات..

- هكذا الأحلام، ربما لن تشعر بمرورها من الأساس، لكن ينبغي عليك المرور بها؛ فمثلًا في الحُلم الجنسي كل الغرض أن تستيقظ محتلمًا، ولكن هناك شرطًا، هو أن يتقبل العقل الحلم نفسه، فلا يمكنني مثلًا أن أجعلك تُضاجع والدتك أو أختك أو أباك أو أخاك أو ابنة أخيك، لأن العقل نفسه لن يقبل بهذا الأمر، وبالتالي لن يحدث اكتمالٌ للحالة التي سوف تستيقظ لها مُحتلمًا، ولكن من الممكن أن أجعلك تُضاجع زوجة عمك أو تُقبل جارتك أو أن تعيش لحظاتٍ حميميةً مع بنتٍ رأيتها في قطارٍ أو عابرةً لطريق، وهنا لا يهم ملامحها كُلية، لأن العقل خزَّنها في الذاكرة ولم تصل لحالة الاكتمال، أو من الممكن أن أجعلك تستخدم عادتك السرية، أو تُضاجع حيوانًا مثلًا، هل تعتبر هذا إشارة إلى تقبيل جارتك أو عيش اللحظات الحميمية مع حيوانٍ ما؟

أشار جويد بالنفي أيضًا.

- ربما أنت لن تذكر من ضاجعت في الأساس، فكل الغرض هو احتلامك فقط، سأخبرك بشيء ما، في اللوح الذي رأيته معي أصبُّ كل أحلامك، وأحلام الآخرين، أحيانًا أجد أن هناك أفكارًا تكونت في عقل الحالم، ذلك يُساعدني كثيرًا في تكوين الحلم، فربما أستعين بذلك لأفكر

في تحديدي لحلمك، وربما لا أستعين به مطلقا، النوم وأنت جائع مثلا من الممكن أن يجعلني أمنحك حلمًا به طعام، النوم وأنت "عطشان" يُساعدني على أن أمنحك حلمًا تشرب فيه ماءً، وهكذا..
قام الشيخ ومشى إلى خارج الحُجرة، أفسح له جويد الطريق، وغاب الشيخ دقيقة ثم رجع وهو يمسك بأحد الألواح، أشار إلى جويدٍ بمتابعة اللوح، كانت في اللوح صورة سلمان وأمامه تمشي سعاد لبن، كانت سعاد تبدو واضحة تمامًا، لكن سلمان لا يراها.
- هذا هو تفكير سلمان مثلًا، لا يُفكر إلا في سعاد، وأنا من الممكن أن أمنحه حلمًا عن سعاد ولكني لن أمنحه هذا الحلم..
أمسك جويد اللوح وأشار إلى صورة سلمان:
- بالله عليك يا شيخ، امنحه حُلمًا واحدًا عن سعاد.
ضحك الشيخ ثم فكر قليلا وأومأ برأسه موافقًا، راح إلى بركة المياه، وحين غمر اللوح فيها تلاشت كل اليرقات النورانية، تصاعد شكل سلمان متماوجًا على سطح البركة، قام الشيخ وأحضر عددًا من الأوعية التي بالطاقات، وأحضر معها الوعاء الذي يرتكن وحيدًا فوق الرف، أمسك بالوعاء واقتطع به قليلا من ماء البركة، ثم قرَّبه من فمه وسحب نفسًا عميقًا وهو يُغلق عينيه، صبر قليلًا ثم نفخ في سطح الوعاء بهدوء، أنزل الوعاء وسكب ماءه في البركة مرةً أخرى، أمسك بوعاء أحمر به ترابٌ ناعمٌ أحمر اللون أيضًا، ورش قليلًا من التراب في البركة، والذي تعجَّب له جويد أن البركة استقبلت التراب كأنها تحتاجه، وجد التراب لا يذوب ولكنه يأخذ طريقه إلى اللوح تمامًا.
- هذه درجة الوعي في الحُلم.
قام وأخذ يبحث قليلًا بين الأوعية التي تحمل الرمل وأمسك إحداها مكتوبًا عليها سلمان، أمسك بحبة رمل خشنةٍ واحدةٍ ووضعها في البركة، وحدث مثلما حدث مع التراب راحت حبة الرمل تتجه إلى ناحية اللوح المطمور في الماء، وتفتت ودخلت في اللوح.
- وحبة رمل واحدة لكي يبقي الحلم ليوم واحدٍ.
صبر الشيخ لثوانٍ ورأى جويد طيف سلمان يَتلاشى في البركة، مدَّ الشيخ يده وأخرج اللوح، كان الحلم قد اكتمل تمامًا، ظهر فيه سلمانٍ وهو يُقبل سعادًا بنهم، كان يُقبلها كأنه يأكلها أكلا، كانت تلبس قميصًا أحمر، مستكينةً تمامًا تُشبه دُمية خُلِقَت لتستجيب، وراحت الصورة تهتز بقوةٍ حتى استكانت تمامًا.
- ما هذه الأوعية يا شيخ؟
- الوعاء الفارغ الذي اقتطعت به جزءًا من ماء الأحلام، هو لتكوين الحلم وتجميعه، أُقرب الوعاء من فمي بعد أن يكون الحلم قد اختمر تمامًا في عقلي، أنفخ في الماء فتتدفق الفكرة مخلوطةً بالهواء إلى الوعاء، تمتزج بماء الأحلام فتتحول من فكرةٍ إلى تجسيم، أمزجها بالبركة التي تجمع الفكرة وتسقطها داخل اللوح المطمور بالأسفل، أما التراب الأحمر فهو وعي الشخص نفسه، هو ترابٌ عادي من مكونات هذا الجبل، أنت تعرف أن الجبال مليئةٌ بألوانٍ كثيرةٍ من التراب، بالتأكيد هذه الألوان خُلقت لسببٍ ما، التراب هنا ملون لأن هناك حكمةً من ذلك، فالمائل للزرقة هنا يجعل الحالم بالكاد يشعر بالحلم، أما اللون الأحمر فيجعلك تشعر بتفاصيل الحلم الدقيقة، كما قلنا مسبقًا، وهناك درجةٌ أخرى لا تجعل الحالم يشعر بشيء بتاتًا وهو اللون الأصفر، أما الدرجة الأخيرة فهي للأسود؛ وتلك التي لا قِبل لك بها، وهي التحكم في الحلم من الداخل، أي أنها درجة الوعي الكامل، بالطبع لا أنت ولا غيرك رأى مثل هذا الحلم من قبل.

- هل هذا ترابٌ مِن الذي نعرفه؟
- أجل يا ولدي.. هو ترابٌ عادي جدًا.. تراب ونار وريح وماء.. هي مكونات عالم الإنسان.
- وكيف تتحكم في الحلم من داخل الحلم؟
- يعني أن تمسك مِقود الحلم فتدير وجهته إلى أي اتجاه شئت، ومن الممكن أن يتغير الحلم داخل الحلم نفسه بما لا يتنافى مع العقل، لأنه بالطبع فكرة من أفكار العقل، وإذا لم يتعارض الأمر فمن الممكن أن تُضيف تفاصيل أو تُنقص تفاصيل، على حسب عقلية الشخص نفسه.
- سؤالٌ أخيرٌ يا شيخ، كيف تنفخ في الوعاء فيتضح الحلم، وكيف للفكرة أن تخرج عبر الهواء من الأساس؟
- يا ولدي أنت تُفكر بعقلك، الفكرة في العقل مجرد نقطة متناهية الصغر، كل الذي أفعله أنا، هو أنني أفكر في الحلم وأحداثه بعناية، أنتهي منه تمامًا في عقلي أولًا، وأنت تعرف بالطبع أن المخ يحتاج إلى الهواء، ولو توقف الهواء والدم لمات الإنسان، وحين تستنشق الهواء يدخلك ويتماهى مع دمك ليغذي كل مناطق الاحتياج في جسدك، الهواء يمر على العقل، وبالتالي كل الهواء الذي تنفخه يكون محملًا بالأفكار، قل لي مثلًا كيف تترجم المرأة احتياج الذكر إليها، كيف تحس البنت أن فلانًا يُحبها على الرغم من انعدام نظراته إليها، كيف تعرف المرأة أن زوجها ينام مع غيرها، كيف تشعر المرأة بالانجذاب إلى رجلٍ لم تره من قبل، أو أنثى تقع عليها عيناك لأول مرة، كيف تذهب لرجلٍ وتقول له أشعر أني أعرفُك من قبل؟ كيف للمرأة أن تترجم احتياجات طفلها وطفلتها؟ والكثير والكثير من الأفكار التي تتزاحم في الهواء ويستطيع البعض ترجمتها، وهنا ماء البركة له قدرةٌ على تجميع تلك الأفكار وترجمتها في صورة حلم، وحين أقتطع قليلًا من الماء فذلك لأركز الفكرة أولًا في الوعاء، وأسكب الفكرة في البركة فتذهب مباشرة ليتشربها اللوح، أما بخصوص الرمل في الوعاء الأخير فهو خاص بوقت الحلم، أي أن حبة رمل واحدة تجعل الحلم ليومٍ واحدٍ، وحبتان تجعلان الحلم ليومين، وثلاث حبات لثلاثة أيام وهكذا.

نظر جويد بدهشةٍ للشيخ:

- أتعني يا شيخ أن عدد حبات الرمل في الوعاء يُماثل بقاء الإنسان حيًا، أي أنه بعد أن تفرغ حبات الرمل سيموت الإنسان مثلًا، هل هكذا تحسب عمر الإنسان؟

ضحك الشيخ بقوةٍ وهو ينظر بتعجبٍ لجويد:

- يا ولدي من قال إن عدد حباتِ الرمل يُساوي فترة حياة الإنسان، وهل تعرف إنسانًا يحلم كل يوم؟ وهل يحتاج الإنسان في حياته كلها إلى أحلام؟ لا يا ولدي، من الممكن أن تحلم يومًا في الأسبوع ويومًا في الشهر، هذا أمرٌ نسبي، صحيح أن لكل شخص في النجع وعاء خاصًا به مُلئ بالرمل، لكنه لا أحد يحلم كل يوم، وحين يلد شخص ما فأنا أملأ الوعاء الخاص به، وأحيانا يفيض الرمل بعد موته، ولكن لم يحدث أن فرغ وعاء قبل موت صاحبه.

أومأ جويد برأسه متفهمًا، ثم رفع سبابته أمام الشيخ:

- كيف يستقر الحلم في اللوح مع أن اللوح من الرخام، والمفترض أنه مادة صخرية لا تقبل الأحلام عليها؟
- يا ولدي! مَن قال لك إن اللوح من الرخام، اللوح موجود منذ الأزل بنفس طريقة صُنعه، هو يُشبه الرخام لكنه خفيفٌ جدًا، وكلما مات مخلوقٌ تجدد اللوح بولادة آخر، وبعض ألواح الذين ماتوا تنتظر بالخارج لتتبدل بولادة أحدهم، وهناك ألواحٌ لم تُستخدم بعد لأن المولود أكثر من المتوفى.

اللوح هنا هو الذي يصوغ حركة الحلم مرة أخرى إن لم تكن حالة الحلم مُكتملة، أو تدخلت

عناصر أخرى مع الفكرة فبدت غير خالصة أو تشوبها شائبة، اللوح مصنوعٌ من أحجار هذا الجبل، وهي مواد تقدر على تجميع الحلم واستخلاصه من ماء الأحلام الذي يدخل في نسيج اللوح ويثبت به الفكرة تمامًا، ثم تدور الأحداث على سطحه فتتابعها للتأكد أن الأحداث توافقِ فكرتك تمامًا، حين أفكر في الحلم فلا بد أن أكون صافي الذهن تمامًا لذلك أغمضِ عيني مغلقًا العالم من حولي، ولأقدر على تجميع الفكرة ثم أنفخها في الماء، لو كنتُ مشوشًا وتداخلت فكرتان فهنا يأتي دور اللوح فأعرف أن الفكرة غير مكتملةٍ فأعيد صياغتها من جديدٍ قبل أن يخرج اللوح من البركة، لأن خروجه يعني عدم قدرتي على تغيير التفاصيل مرة أخرى.

أومأ جويد برأسه متفهمًا مرة أخرى..

- طيب والوعاء الخاص بنفخ الفكرة، هل هو أيضًا صنع خصيصًا ليقدر على ترجمة الفكرة إلى حدث؟
- لا يا ولدي ..أي وعاء يصلح لهذا الأمر.
- طيب سؤال يا مولانا، لماذا أنا بالذات تشرح لي كل ذلك؟
- قلتُ لك لا يوجد شيء خُلق عبثًا يا ولدي، وأنا هنا لأتمم أقدارًا لا أعرفها، كلنا مُخيرون ومُسيرون في نفس الوقت يا ولدي، لا يوجد شيء خُلق عبثًا، تذكر هذه المقولة!

قام من مكانه ومدَّ يده للشيخ وسلم عليه، واحتضن يده الرخوة تمامًا والتي تكاد تكون مجردة من العظام.

- الوقت تأخر.. سأغادر أنا.

هز الشيخ رأسه:

- اذهب يا ولدي ليحفظك الله!
- شكرًا يا شيخ.

قالها جويد وخرج من الحجرة ليمنح نفسه للألق المبهر للباحة المنيرة، ثم خطى خارج الكهف ليجد القمر في انتظاره ليفصح له عن معالم الطريق.

نُبُوءَةٌ بِحُلم

أدخل جويد يده في الفتحة الكبيرة بجوار مزلاج البابً، واستخرج منها المفتاح الخشبي الكبير، وأدخله في التجويف الكبير المخصص له في المزلاج، أخذ يُحركه قليلًا حتى اشتبكت السنان

ودفعت القطعتين الخشبيتين للأعلى، شد بقوةٍ فانفتح الباب وله ذلك الصوت المزعج، والذي يُشبه صوت بقرةٍ سُرِقَ وليدها، دخل وأغلق الباب محاولًا كتم الصوت، مط جسده وخطا إلى الداخل، ضغط زر النور ليفصح له عن مكونات البيت، وعند أول خطوة له فتحت الأم باب حجرتها وأخرجت رأسها.

- سلمان وحامد العاجز سألا عنك ثلاث مرات، الأكل مُغطى في الشعليقة، لا تُصدر صوتًا لأن أباك نائم.

قالتها وأغلقت الباب، مد يده إلى الشعليقة المصنوعة من سلك الألومنيوم والموصولة إلى السقف بسلك ألومنيوم أيضًا، أمسك بالأطباق المرصوصة فوق بعضها، أمسك بالطبلية المسنودة على الجدار وعدلها على الأرض ورصَّ الأطباق فوقها، خطا إلى حجرة الجلوس وكشف "العجانة" الكبيرة وأخذ رغيفًا غير مكسورٍ وغطى العيش مرة أخرى.

- يا جويد.. يا جويد!

ارتفع صوت سلمان ونقراته على الباب.

- هل كان ينتظرني؟

قام على أطراف أصابعه خوفًا من استيقاظ الأب أو إزعاج الأم، فتح الباب ونادى على سلمان، دخل سلمان البيت ودون مقدماتٍ قال:

- لقد ضربت عبد القادر، ضربته ضربًا مبرحًا، عجنته عجنًا.

لفَّ جويد راحة يده متسائلًا:

- لماذا؟

شبك سلمان يديْه كطفلٍ يعترف بخطأ:

- اعتقدت أن عبد القادر هو مَن أخبرك بحلمي عن البنت التي لها قدم ماعز ورأس كلب، أنا لم أخبر أحدًا غيره بهذا الحُلم، فلو لم يكن عبد القادر كما أقسم، فمن الذي أخبرك؟

شبك جويد أصابعه على وجهه، كيف يُخبره عن شيخ الأحلام؟ وهل سيصدقه؟ جويد إن فتح فمه بهذا الموضوع أمام سلمان فربما يتدحرج كعلكةٍ في أفواه أهل النجع وستلتصق به صفاتٌ معينةٌ من عينة مجنون، وأهبل، ومخرف، والكثير، سيُزف زفة "عطية الله" حين خرج عاريًا من أثر الخمر، إذن ما الحل؟ وما الذي سيخبره به لكي يُقنعه أنه يعرف الحلم بعيدًا عن عبد القادر المسكين.

- سلمان سأخبرك أمرًا، لكنه سر اختصصتك به فلا تُخبر أحدًا وعدني بذلك!

- ورأس أبي لن يحدث وأعدك على الكتمان، سأعتبر أني سمعت من هنا.

وأشار سلمان لأذنه اليمنى، ثم إلى اليسرى وأكمل:

- وأخرجتُ من هنا.

- إذن سأخبرك، الله منحني موهبة كبيرة يا سلمان، هي أنني أحلم أحيانًا بما سيحلم به الناس قبل حلمهم به، بمعنى أنني أرى جزءًا من الحلم الخاص بك، وبالآخرين، وأعرف ما دار في الحلم، وكنت قد رأيتك تنظر إلى البنت التي لها قدم ماعز ورأس كلب، فعرفت أن هذا حلمك.

أومأ سلمان برأسه إيجابًا، وكاد يسأل سؤالًا لكن جويد استدرك بسرعةٍ ليطفئ كل مواطن الشك التي تشتعل بداخل سلمان.

- وبالأمس رأيتُ لك حلمًا ستكاد تُجن من فرحتك به.

ابتهج سلمان وظهرت الفرحة في عينيْه، والفرحة جعلته يكتم أسئلته التي كان سيطرحها على جويد، تدفق منه حنينٌ وهو يجلس على حافة الطبلية، وأمسك بيد جويد مانعًا اللقمة من

وصولها إلى فمه، وهزه بلهفةٍ واضحةٍ.
- قل بالله عليك يا جويد، هل فعلًا ما تقول؟
ضحك جويد ومال تجاه سلمان:
- اليوم ستحلم بواحدةٍ ستُجن لرؤيتها.
أطلق سلمان آهةً قويةً وأغلق عينيه ووضع يده على صدره في حركةٍ مسرحيةٍ، كأنه يهيم في ملكوتها.
- يا إلهي.. كم أنا مشتاق، وعندي لوعات وليس لوعة واحدة.
ضحك جويد وقال:
- قم واستحم وسرح شعرك واحلق لحيتك واضبط أمورك، هيئ نفسك لها، لأنها بالتأكيد تضبط أمورها لملاقاتك، وأقول لك الأكثر، ستأتيك تلبس قميصًا أحمر ناريا.
- يا إلهي، عليَّ الطلاق لو كان هذا صحيحًا يا جويد فكل ما ستشربه في المقهى على حسابي، وسأقول لك يا مولانا، عليَّ الطلاق من الممكن أن أقول لك يا عمي.
ضحك جويد:
- إذن فلتهيئ نفسك لمجيئها يوميًّا، سأزوجها لك رغمًا عنها.
ضحك سلمان:
- أنا لا أريد الزواج منها فهذا حلمٌ كبيرٌ على شخصٍ مثلي، أنا أريدها في النوم فقط، هل هذا حرام؟ ولا تقلق سأجعلها تحلف بحياتي لو جاءتني فعلًا في الحلم.
وقام سلمان فقام معه جويد ليشيعه إلى الباب ليغلقه وراءه، وقبل أن تصل يد سلمان إلى المزلاج الخلفي صغير الحجم بالنسبة للمزلاج الأمامي استوقفه جويد:
- تعطر من فضلك يا سلمان، لأن جلبابك ترك في البيت آثار رائحتك العطنة المليئة بروث البهائم.
ضحك سلمان وأومأ برأسه:
- عليَّ الطلاق البقرة التي تُخرج الروث أنظف مني أنا الذي أنظف الروث من تحتها، ولا تقلق سأستحم بالعطر، واسألها في الغد عن قدراتي!
وضحك ضحكةً عاليةً واستدار متوجهًا إلى الباب وفتحه وخرج، ليغلق جويد الباب خلفه.

بعد تناوله العشاء وشربه الشاي، أخذ جويد يُفكر في حلم يليق به، لم يسأل نفسه يومًا ماذا يحتاج، ما الذي يُحبه، ما الذي يكرهه؟ ولماذا تختل الموازين دائمًا حين تملك القدرة على تحقيق ما تفكر فيه؟ كان يُفكر أولًا بما يكمله، كونه يسعى للكمال فهو إيمانٌ وقناعةٌ بوجود نقص، وحالة الكمال تبدأ من معرفة أين يكمن النقص، النقص دائمًا يبدو في صورة احتياج، فحين يحتاج جويد للنوم مع البنات فالنوم هنا ليس مكملًا لحالة كما هو الأمر عند المتزوج، وإنما هو أساس حالة لأنه لا يملكه، وحين يُفكر في الطعام فهذا يعني أنه جائعٌ، والتفاوت في الجوع هو الذي يُحدد أهمية الطعام، والاختيارات التي يفرضها، فلو أنه جائعٌ تمامًا فسيُحاول فقط إسكات الأفواه التي تعض الجسد، وإن لم يكن جائعًا تمامًا فسيصبر وربما ينتقي ما يأكل، إذن هناك عوامل تؤثر في كم وكيف هذا الاحتياج، وتحديد الأولويات لإكمال النقص لهذا الجسد، ضحك كثيرًا حين فكر أن كل شيء ينقصه، لكنه لن يحلم بوظيفةٍ مثلًا، الوظيفة ستمنحه النقود لكنها ستمنحه التعب أيضًا، ولماذا يتعب إن كان بإمكانه الحصول على النقود مباشرةً، سيذهب إلى النتائج مباشرةً، كل شيء يريده سيضعه في حلمه، إذن ما الذي ينقصه؟ أمسك بورقة وقلم، إنه يحتاج للنوم مع البنات، واحتضانهن وتقبيلهن في كل الأماكن التي سيطولها، سينام مع كل أنواع البنات، اللواتي يعرفهن ولا يعرفهن، سيقضي أوقاتًا مع إليزابيث تايلور وصوفيا لورين وليلى علوي وإلهام شاهين، سيحلم بالروميات والفارسيات والإنجليزيات، سيبقى وحيدًا في كونه الصغير، سيملأ هذا الكون بالبنات، سيكون هو الرجل الوحيد في الكون بالنسبة لهن، ستشتعل المعارك بينهن للفوز بليلةٍ واحدةٍ معه، سيُجري المسابقات ومن تربح ستكون زائرة الفراش، كل شيء مشروع، إنه حلم، وبالتالي لن يُحاسبه الله على أحلامه، إذن من هي الجديرة بالنوم معه، ضحك وأخذ يُقلب في الصور، ذاكرته تنشط وتترى فيها الصور من كل الصنوف والأشكال والألوان، العجيب في الأمر أنه انتهى إلى صورة سعاد، لا لن يُفكر في سعاد، يريد الأجمل منها، برغم أنه يعرف أن الجمال نسبي، يتلون من عين لأخرى بحسب الرائي. يتذكر إليزابيث تايلور حين كانت تستحم والمياه تتدلى وتتعرج بنعومة وتصنع خطوطًا ومنحنياتٍ حسب مناطق الارتفاع والانخفاض في جغرافية ذلك الجسد البديع، تمر نقطة المياه مدفوعة بالنقاط التي تضربها من الخلف، تنزلق كحية استوى لها الطريق، تمر بين ثدييها وتبعثر النقاط الصغيرة عليه فتبدو كبثور خفيفة ولامعة، ويبدو ثديها جامدًا صُلبًا يُعاند الترهل، ظل كثيرًا يحلم بأنه يحتضنها أثناء استحمامها، كان يُحب جسدها كوحدةٍ متكاملةٍ، لكن إذا ما حاول القول بأنها جميلة، فإنه يُفكر، هل هي فعلًا جميلة؟ لماذا يحس إذن بالحنين لملامح ميرفت أمين أو صاحبة الجسد "المربرب"- كما تقول أمه- إلهام شاهين، نفض الأمر عن رأسه وأخذ يبدل بين البنات حتى انتهى به الأمر أيضًا إلى سعاد.

- فلتكن سعاد!

الحق يُقال إن سعاد كانت الأجمل بالنسبة له، سيمنحها الحلم فيشتركان معًا ويعيشان معًا، في الحلم سيبقى كل المرفوض مقبولًا، وكل اللامعقول معقولًا، سيخلق عالمًا صغيرًا، سيجعله كما يُحب أن يكون، سيُعطي للحلم أبعادًا أخرى أكثر من واقعية، سيجعل الحلم بنصف وعي حتى يحس بأفعاله، كل يوم سيقضي حلمًا جميلًا مع بنات النجع، من الممكن أيضًا..

تناهى إلى سمعه كلامٌ يقوله عبد الحق لزوجته سعدية:

- ما الذي ستخسرينه إن ذهبتِ إلى الشيخ؟ كل الناس تذهب إلى الشيخ أمين، والحريم يتقلبن على حصره، لن تخسري شيئًا، وربك خلق العلة والدواء، ولنا في غيرنا عِبرة، افعلي ما أقوله لك، وإن لم يحدث شيء فهو نصيبك.

كان هناك نشيجٌ واضحٌ جاء بعده صوتُ سعدية مملوءًا بالحسرة ومخلوطًا بالدمع.

- مع أني لا أقبل بمثل هذه الأفكار لكنني سأذهب، أشعر أنه كَفر مُحقق لكنني سأذهب، ليست هناك حيلةٌ بيدي، ولكن لأجل خاطرك سأذهب، أنا لا أحب أن أراك مُتعبًا، ولا أقدر على العيش في بيت لست فيه، والأمر لو كان بيدي لملأت البيت أطفالًا.
وبكت بصوتٍ عالٍ، صوت رق له قلب جويد، وأحس بتلك الدمعة الساخنة، والتي وجدت لها منزلقًا ممهدًا فسلكته وانحنت إلى جانب فمه فأخرج لسانه وتذوق ملوحتها، وقف ومشى، وقف ثانية، إلى أين يذهب الآن؟ ثم ماذا يقول للشيخ؟ راح يفكر ويقرض أظفاره، حالة من التوتر تتصاعد بداخله، وسعدية تبكي، وعبد الحق كأنه غير موجودٍ، جلس على طرف السرير، دعك عينيه بقبضتيه المضمومتين، وأخيرًا حاول نفض الأمر كله، أخرج كتابًا واعتلى سريره، نام على جنبه، وفتح كتابه وأخذ يقرأ حتى غافله النوم فوقع الكتاب بجانب وجهه على الوسادة.

حَفْلُ الشَّهَامَةِ

كل فرحةٍ مُتخيلة تعرف قدومها قبل مجيئها تفرز هرمونًا يجعل النوم يُلاعبك كطفلٍ نزقٍ، زفر سلمان بقوةٍ وهو يضع الوسادة على رأسه، ويضغط عليها بقوةٍ، يعرف أن الضغط بقوةٍ يجعله يتحكم في الجسد، والنوم يحتاج إلى جسدٍ مهيأ للاحتلال، النوم لا يُحب المعافرة، يحب الاستسلام الكامل بلا شروطٍ، التفكير يقف كمتراس متين بينه وبين النوم، حتى تفكيره يُعد بمثابة قلق، وتأتي سعاد، يُفكر فيها بقوة، يفرزها فرزًا، يحب كل شيء فيها، أزاح الوسادة واعتدل جالسًا دافنًا وجهه بين راحتيْه.
- لو كان جويد يضحك عليَّ سأطحن عظامه.
تذكر أن جسمه ضعيفٌ بالنسبة لجويد، ولو أراد جويد ضربه لاستخدم يدًا واحدةً، لكنه نفى كل معرفته وقال في نفسه:
- سأضربه مثل علقة عبد القادر.
شعر بأن هناك صوتًا داخليًا يُناجيه: "وماذا إن كان صادقًا، وجاءتك تتبختر وترمي صدرها الذي يُشبه المربى على صدرك؟".
أخذ سلمان يتخيلها، هل حقًا ستلبس الأحمر، طبعًا هو لم يستحم مثلما قال لجويد، ولم يتعطر، ولم يفعل

أي شيء، هو حلم، وفي الحلم يتغير الجسد، تتغير الحقيقة والمضمون، مط جسده على السرير، شبك أصابعه خلف رأسه وسرح في العوالم، كل النجع يحب سعاد، ولا يمكن لأحدٍ أن يطلب يدها لسببين، أولهما أن الرجل في النجع لن يقبل الزواج براقصة، من الممكن أن يُحبها ويهيم بها ويدفنها في قلبه دفنًا، لكن إن أتى الأمر للزواج فعائلته لن تقبل، وربما سعاد نفسها لن تقبل لأنها ترى نفسها أكبر من حدود النجع، والسبب الثاني هو أن سعاد نفسها ليست لها عائلة معروفة، وبالتالي لا يمكن انخراطها كتابعةٍ لأي عائلةٍ أخرى، ثم إن إسباغ الأدهم حمايته عليها، ربما يكون سببًا ثالثًا لأنه لن يسمح لها بالزواج حرصًا على متعته الشخصية، وربما لن يوافق الأدهم من الأساس على أية زيجات لها، ربما لولا الأدهم لمزق ملابسها في عرض الشارع، الحشيش والمخدرات تمسك بعقولهم وتأرجحها ما بين واقعهم وتخيلهم، لكنهم سرعان ما يفيقون على معرفة أن الأدهم أكثر من مجرد خط أحمر، ربما الاقتراب منها يعني نفيًا خارج حدود النجع، "سعاد" ليست بكرًا، وبالتالي ببعض التعامل مع "البرشام" يُمكن أن تبني سدًا منيعًا لا يستطيع الصغار تسلقه إلى الرحم، لكن والحق يُقال لم يستطع أحدٌ رؤية شخص ما يخطو إلى دارها، "سعاد" لديها أخت اسمها "سنية"، هي مساعدتها لكنها لا تُشبهها، سعاد أخذت الجمال كله من أمهما وتركت أختها فقيرة جدًا من هذه الناحية، "سنية" تلم النقوط في الأفراح والموالد، وهي أستاذة في كل ما يخص الحريم من عمليات تجميل بدائية، كنتف الشعر "بالحلاوة"، وتخفيف الحواجب، ودوران "الفتلة" على الوجه، يوم الأربعاء كله ويوم الخميس نهارًا هما يوما الشغل الشاغل لها، يمتلئ البيت بحريم النجع المندسات خلف النقاب، يرحن ويجئن، وشباب النجع يتلفظون بالقبيح في سرهم، لأنهم لا يعلمون مَن التي تعبر أمامهم، إمعانًا في الخديعة لم تكن الأمهات اللواتي لديهن أطفال يصطحبن أطفالهن معهن، وبالتالي لا يعرفون من التي تمر أمامهم، المؤخرات لا تظهر بوضوح لسمك العباءة السوداء، حتى الأيدي لا تظهر، وبالتالي لا تعرف حتى لون البشرة، "سعاد" فقط هي من تلبس "المحزق"، الذي يحضن جسدها بقوة عاشق، لدرجة أن حد "الكيلوت" يظهر قويًا وفاضحًا أثناء سيرها، الشباب ينظرون وبعضهم لا يقول إلا "آآآآآآآه" ويرجعون إلى لعبهم، واحدٌ فقط هو مَن امتلك الجرأة، واحد فقط هو من قلص المسافات للغاية بين يده وملابسها في عرض الشارع، شدَّ "رجب" ملابسها إليه بقسوةٍ وهو يقول بصوتٍ مُتهدج: "هذا حرام، حرام، حرام"، مد يده واحتضنها بقوةٍ عاصرًا ثدييها بكفيه الغليظين، راحت صرخاتها تَجري وتلم الخلق، كان رجب يُحاول تقبيل ثدييها ويمط شفتيه بقوةٍ وهي تحاول أن تبعده عنها بقوةٍ ضعيفةٍ، عندها أحس رجب بالأقدام التي تصنع دبيبًا تقترب منه بسرعةٍ، تركها فجأةً كما أمسكها فجأة، وضع كفيه أمام وجهه كأن ما فعله كان رغمًا عنه.

- والله ما قصدت.. والله ما قصدت..

لكن الشباب كانوا قد رأوا ما حدث، وجاء الكل ليُجامل "سعاد" وهي تنظر إلى رجب الذي أصبح كومةً مُلقاة تعمل فيها الأيدي والأقدام بسرعة، رجب لم يكن من عائلةٍ لها نفوذ، وبالتالي لن يتصاعد الأمر، ثم إن رجب أصبح عارًا عليهم، والخزي في النجع لا يُدافع عنه أحدٌ، سعاد تنظر، والشباب يضرب، وهي ترى عزيمتهم، ومع كل نظرةٍ خائفةٍ منها كان أحد الشباب يزيد الضرب صارخًا:

- ألأنها لا تملك رجلًا؟!

"سعاد" تعرف أن كل هذا الضرب هو في الواقع مجاملة لها، وكل منهم يضرب لغرضٍ ما، ربما تمهيدًا لشيء يتخيلونه في قادم الأيام، وحين أدارت وجهها توقف الضرب تمامًا وهمد جسد رجب متأوهًا بقوةٍ، من البعيد جاء رجلٌ فاته حظه من الضرب، كان يُمسك عصا صغيرة وجدها أمامه أثناء الخروج مسرعًا من بيته، وصل إلى رجب المتكوم والذي يئن بقسوةٍ، وتساءل عن السبب الذي ضرب من أجله، قصوا عليه بسرعة ما كان، وعند التفات سعاد إليهم مرة أخرى، وحتى لا يفوته حفل الشهامة، رفع عصاه إلى

الأعلى ونزل بها على الجسد المطروح.

- خذ ضربتي ومت يا ابن الكلب!

وطبعًا جاء الأدهم وكاد ينفي "رجب" إلى خارج النجع تمامًا، لولا "سعاد" نفسها فقد توسطت لرجب عند "الأدهم" فتركه إلى حال سبيله، والعجيب أنه في اليوم التالي شوهد رجب كأحسن ما يكون، يلبس جلبابًا نظيفًا وتفوح منه رائحة عطر، وكلما قابل أحدًا من الذين ضربوه في حفل الشهامة كان يضحك، ويبرز إصبعه الأوسط في يده اليمنى ويطعن به الفراغ أمام من يكلمه ضاحكًا بقوةٍ، وقائلًا "خذ"...!!

سبحانٍ الله، النوم قاسٍ جدًّا، مع أنه رحيمٌ جدًّا، يأتي إليك في أعز اللحظات التي تُحب أن تكون فيها مستيقظًا، ويبتعد عنكٍ في ذروة احتياجك إليه، "جويد" لا يكذب، وقد أخبره أنه مُقبل على فرحةٍ وهو يُصدقه، لن يفكر في "سعاد"، سيفكر في عمله على "قادوس" الساقية مترنمًا بالأغاني، البقرة تلف وتلف، والساقية تدور وتدور، تجري المياه محملة بالحياة للزرع، ينتشي ويتمطى فيفرد شواشيه، يُلاعب الريح ويصنع كورالًا من نغم متوحدٍ يُعجبه، لكن حتى التفكير في شغله، هو تفكيرٌ أيضًا وسعاد تنتظر وهي غير مدركةٍ أنها تنتظر، ضَحك بقوةٍ، وراحت عيناه تنغلقان رويدًا رويدًا....

كان له الحق في كل ما يفعل، عقله هيأ له ذلك، يلبس جلبابًا أبيض متكئًا على سريره ومنتظرًا انفتاح الباب، لم ينتظر كثيرًا، فقد بدت على عتبة الباب، تلبس قميصًا أحمر يشف بقوة عن مكنون الجسد، سلمان أصبح عاريًا، لا يعرف كيف لكنه الآن عارٍ، وكأن سعاد زوجته، لم يمهد لفعل قادم، ودخل في جسم العَلاقة، قبَّلها كمسعورٍ واحتضنها، وهي مثلُ دمية كلما أراد فعلًا هيَّأت له الفعل، اهتز السرير قويًّا بوتيرةٍ تصاعدت حدتها حتى بلغت الذروة، ثم همد الصوت تمامًا.

فَرْحَة خَام

خبطاتٌ شديدةٌ ومتعجلةٌ سحبته بقسوةٍ من النوم، الباب يكاد يئن تحت حجم القبضة، جرى جويد مفزوعًا إلى الخارج، فتح الباب بسرعة فأمسك سلمان برأسه وقبَّلها ومال على وجنتيْه يُقبلهما، أشاح جويد بيده ليمنعه من اقتراب فمه ناحيته مرة أخرى.

- سلمان!!
- يا وليًّا من أولياء الله الصالحين يا جويد.

ومال على يد جويد يُقبلها.

- والله أنت ولي من أولياء الله الصالحين، بركاتك يا مولانا!

ضحك جويد وشده إلى داخل البيت، ونادى على أمه، لم يتلق جوابًا فعرف أنها تبيع الدجاج في سوق الأربعاء، وأبوه في العمل، حمد الله لأنها لو كانت بالبيت لما توقفت عن الزعيق في سلمان، وبالتالي الزعيق معه، راح ليضع كنكة الشاي ولكن سلمان استوقفه وحلف بالله أنه مَن سيُجهزه، دخل جويد إلى الحمَّام وتوضأ ثم خرج وصلى وبعد انتهائه خرج مع سلمان ليجلسا على المصطبة.

- يا إلهي.. كانت بالفعل تلبس الأحمر، أي نعم، أحمر، ارتعشتُ بمجرد رؤيتها، كانت ليلةً من ليالي ألف ليلة وليلة، تُهت في الفضاء يا جويد، يا الله على هذه الفرحة، كأني عشتُ الفرحة فعلًا، كأنها الفرحة الخام، وأنا أفرغ منها في جوفي كيفما شئت، و..

قاطعه جويد وهو يترشف من الشاي الثقيل:

- لو قالت لك سعاد تزوجني يا سلمان.. هل تقبل؟!

فاجأه السؤال، بالفعل كان سؤالًا غريبًا، أولًا لا يمكن لسعاد أن تطلب هذا الطلب، إنه مجرد عامل قادوس، يسوق الأبقار كي لا تتوقف الساقية عن الدوران، ومَن هو حتى ترضى به سعاد زوجًا وأبًا لأبنائها؟ ومَن هو حتى يكفيها لقمتها التي بسببها ستتوقف عن الرقص في الأفراح والموالد؟ ربما هي طلبت من جويد ذلك فيقيس عليه الموضوع، لكن جويد لا يُماثله في التصرفات، جويد عاقلٌ ورزينٌ وبناتٌ كثيراتٌ يُمنين أنفسهن به، ثم إنه متعلمٌ ويعرف الله ولا يفوته فرضٌ، ويحل مشاكل الخلق ولو كان سيدفع من جيبه، المهم أنهم يرجعون متصافين متحابين، سماحة وجه جويد تهيئ له الدخول السريع إلى عمق المشكلة فيسحب عقدتها، ويبسط الأمور تمامًا كمن يغلفها بغلافٍ جديدٍ، وكأن أصحاب المشاكل يرون مشكلتهم لأول مرةٍ، سهلة جدًا ولا تحتاج إلى كل هذه الخصومة، ولا توجب الشحن في النفوس، أما سلمان فهو يشرب الحشيش ومعروف بمجونه وعشقه لسعاد، لو سمع عن حفلٍ لها يُقام ليلًا فمن الممكن أن يترك عمله في اليوم التالي ليسهر حتى الصباح قدام رقصها، يتمايل حسب تمايلها، ويهز جذعه بغير مرونةٍ محاولًا التوافق معها

أطرق برأسه مُفكرًا، هل هو يُحبها فعليًا؟ لا يعرف لكنه يعرف أنه يرغب فيها بشدةٍ، لا في الزواج منها، ولكن بأن تكون ملكًا له، لا يقرب منها أحدٌ غيره، وفي الوقت نفسه لا يمكنه الزواج منها، لا يمكن أن يجعل الشك ضيفًا مع كل مخلوقٍ يدخل أو يخرج من بيته، ربما يُغلق عليها الدار ويحبسها حتى لا يراها أحدٌ، وحتى في محبسها ربما سيشك فيها، يعرف تمامًا أن المرأة في كل المجتمعات لا تخضع نفسها إلا لهواها، ولا تقبل بإملاء الشروط، والمرأة تفعل ما يحلو لها ولا يمكن توقع خطوتها، إن أحبت المرأة خيانة رجل فلن يثنيها عن عزمها شيء، ستخونه وإن كان يمشي خلفها كظل، وإن وضعت في رأسها الوفاء فستفي ولو بقيت عارية وسط آلاف الرجال، والكل يعرف أن سعاد من نوعيةٍ صُلبةٍ، ولها عريكةٌ لا تلين، هي بالفعل صُلبة المراس، ولا يعرف أحدٌ مدخلًا لها، لم يسمع يومًا أنها تحب أحدًا، حتى قربها من الأدهم كان لمصالح مشتركة بينهما، المدخل إلى سعاد إن لم تفتحه هي فلن يقدر أحدٌ على فتحه، لها عقلٌ غير قابلٍ للخديعة، ما الذي تُحبه سعاد، لا يعرف ولا أحد يعرف، لأنها غير مفتوحةٍ على الناس، النجع مجتمعٌ مُغلقٌ على ذاته، لذلك لا يُمكنه أن يتزوجها، حتى ولو طلبت هي ذلك فلن يوافق، النجع يقفُ في حلقه مثل شوكةٍ كبيرةٍ، وربما لو طلبت سيوافق لأن الإنسان يضع الشروط حين يكون في وضع يسمح له بالاختيار، سعاد لو قالت له تزوجني فربما لن ينام لأسبوع كاملٍ من الفرحة، وربما يطلب منها أن تهرب معه إلى مكانٍ بعيدٍ عن العائلة، لكنه يعرف أنها لن تقبل، هي شجاعة وتقدر على مواجهة أربعة نجوع كاملة، هل سعاد- فعلًا كما يقولون- تحب الرجل المثالي الذي يعرف الله، ويعرف الطريق إلى المساجد؟ رجل يهزه النداء

المتواصل خمس مرات في اليوم والليلة، ضحك سلمان في قرارة نفسه، ففاقد الشيء لا يُعطيه، كيف تطلب زوجًا أو حبيبًا يعرف الله، وهي التي توزع المعاصي لشباب النجع؟!

- صدقني يا جويد، أنا أحب الأحلام التي تكون بها سعاد، أنا لا أحبها كشخصٍ، وهناك احتمالٌ كبيرٌ أني أحبها، لا أعرف، ولو طلبت مني الزواج- وهو المستحيل بعينهٍ- فربما سأقبل، وربما لا أقبل، وربما لأني أعرف أن هذا لن يكون، فلا أعرف الإجابة التي ترضيك.

أومأ جويد برأسه متفهمًا، كان التأثر يبدو واضحًا على وجه سلمان، لأنه يستبعد الموضوع من الأساس إيمانًا منه باستحالة حدوثه، ويوقن في نفسه أنه غير مُستعد لأن تطلب منه سعاد ذلك الطلب، جويد يعرف هذا ويعرف أن..

قاطع تفكيره صوتُ باب بيت عبد الحق يفتح بنفس الصرير العالي، وتخرج منه سعدية وهي تلبس قبتها السميكة وشالها وطرحتها، ولما رأت جلوسهما توترتٍ قليلًا، حاولت الرجوع إلى بيتها ولكنها تشجعت وتقدمت، مشت من أمامهما صامتةً ومُسرعةً وخجولةً، خطواتها مُرتبكة وتكاد تتعثر كأنها خطواتُ لص، كل ذلك دعا سلمان لأن يشير إليها ويكلم جويد.

- سعدية تبدو خائفةً من شيء ما.

رد جويد وهو يمصمص شفتيْه:

- لا أعرف.. مسكينة، فلندعو الله أن يكرمها بذرية.

- يا رب!

قالها سلمان وهو يقف ويسلم على جويد بحرارةٍ:

- شرابك اليوم في المقهى على حسابي، لقد وعدتك وسأفي بالوعد.

ضحك جويد، وضحك سلمان وعدَّل هندامه، وأسرع الخطى مبتعدًا، هنا نظر جويد إلى سعدية التي تبدو من بعيدٍ وهي تشق الطريق إلى الخور، تحديدًا- كما يعرف- إلى مقام الشيخ أمين.

نِصْفُ وَعْي

نظرتْ يمينًا وشمالًا، رفعتْ يديها بمحاذاة جبهتها تُحاول مد البصر إلى أكبر مراحل رؤيته تحت الشمس القوية، والتي تلهب الأرض، بعد أن تأكدت أنه لا يوجد أحدٌ قادم، خلعتْ شالها وطرحتها فانساب شَعرها كشلالٍ ناعم، هزته يمينًا ويسارًا، بدا كبحيرةٍ تترى مويجاتها، نظرتْ مرةً أخرى إلى البعيد فجاوبها البعيد بًالأمان، خلعت "قبتها" فبان جلبابُها الوردي المطرز بالكلفة من أسفل، وله ورود ارتسمتْ عليه فمنحته بُعدًا جماليًا، خلعتْ جلبابها- وسط نظرات إلى هنا وهناك- ليظهر قميصها الأسود الشفاف، من تحته يبدو السوتيان واضحًا ومن أسفل يظهر "الشورت" الطويل الذي يلمس ركبتيها، مشت إلى أول المقام، نظفت الحصرٍ من الحصى الصغير المدبب، وجلستْ على الحصر المصنوعة من الحلفاء، الحصر ليست نظيفةً تمامًا وعلق بها الكثير من القش والغبار وبقايا أكياس طيرها الهواء أو علبة كبريت أو علبة سجائر فارغة، لم يهمها كل هذا، فهي ما جاءت إلى هنا لتتقلب على حصرٍ نظيفةٍ، إنما هي دقائق حتى تؤدي طقوس المرأة العاقر، نعم إنها عاقر، عليها أن تؤمن بهذا، وبالتالي عليها أن تتصرف كما يليق

بعاقر، كل البنات أتين إلى هنا، ومنهن من اكتمل حلمها بالطفل الذي سيصلب طولها حين تحني الأيام ظهرها، الكثيرات نصحنها بالمجيء إلى الشيخ والتقلب علي حصره، وهي دائمًا كانت تتعلل بأنها لا تُحب الذهاب إلى الشيوخ، ولا تؤمن بوساطتهن أيضًا، دائمًا ما كانت تقول إن هذه الأفعال حرام، ولولا ضغط زوجها عليها لما جاءت، ولولا إصراره لما تدحرجت، ولما منحت هذا الأمر أهمية تُذكر، حتى وإن جاء الولد، فلن تؤمن بأن الولي يُشكل معالم الطريق بينها وبين الله، حين وصلت إلى هذه النقطة ارتعش جسدها، ومن هي حتى تتكلم على الشيخ أمين وتقول إن المجيء إلى هنا حرام؟ وما كينونتها لتذكر الشيخ أمين بقبيح الكلام؟ وتذكر أن الأمر وساطة أو غير وساطة، إن كان زوجها يؤمن بالشيخ ورأى حالاتٍ كثيرة تقلبت على حُصره، وراحت البطون تتضخم بفعل الرضى الإلهي، حتى الأولاد كلهم حملوا اسم الشيخ أمين، لماذا تفعل بنفسها ما تفعل، بعضها يُعارك بعضها، لا تعرف أين العقل وأين الجنون؟ أين الصواب وأين الخطأ؟ أين الطريق إلى الله وأين العكس؟ تركت تفكيرها، وفردت جسمها على الحُصر، بسطت يديها إلى آخر ما تستطيع بمحاذاة رأسها، تنسمت رائحة الحصر التي تُشبه رائحة خبز عطن، أسيكون هناك جزاءٌ لصنيعها، هل سيباركها الله بالحمل بعد أن أرضت ولي الله؟ ألا يُعتبر هذا التدحرج تذللًا؟ هيأت نفسها وراحت تتقلب ببطء، كانت تتأوه بقوةٍ أثناء تدحرجها، حِرابٌ صغيرةٌ توخزها في أماكن شتى، جسمها اللين لم يتعلم فنون الصد، راحت تتقلب وأغمضت عينيْها، ورأته، كانت تجلس فوق سحابة وتُخرج ثديها وتمنحه للطفل صاحب العينين النجلاوين، التقم حلمتها وراح يمتص منها بفرحةٍ، يبعد وجهه وينظر إليها ببراءةٍ متجسمةٍ فتناديه وتقرب صدرها من فمه، يصرخ بصوتٍ ضاحكٍ رفيع، فتضحك هي بصوتٍ عالٍ، تتخيل أنها تُشبه البتول بذلك الإطار النوراني الذي يحف رأسها، ووليدها يضحك فتضحك السماء، تظل سعدية تحملها سحب وتظللها سحب، تربت على رأس صغيرها وتقول" نااااااااااااام، نناهوووووووو.. نام يا حبيبي نام، هدبح لك جوزين حمام، نام يا وليدي نام، نناهوووووووو"، والطفل ينظر بعينيه اللتين تُشبهان عينيْ عبد الحق ويشير إلى أماكن عدة..

كانت قد وصلت إلى آخر المقام، وقفت ونفضت نفسها وسلكت شَعرها مما لحق به من قش، كانت مُغبرة تمامًا، رجعت إلى أول المقام وفردت جسمها، وراحت تتدحرج....

***

من مكانه- وراء الصخرة- رأى جويد جسدها، كان يعرف أنها في طريقها للشيخ أمين، جعلها تغيب وجرى غير مُصدق، هل فعلًا ستتدحرج سعدية على حُصر المقام رغبةً في الولد؟ لا يمكن، جرى متسترًا بالأحجار الموزعة على شاطئ الجبل، راقبها وهي تتدحرج، تقوم وتنفض نفسها وترجع لتتدحرج مرة أخرى، لم يكن يحتمل أن تفعل سعدية تلك الأفعال بنفسها، سعدية أكبر من أن تؤمن بهذه الخرافات، لا أحد يعرف مَن هو الشيخ أمين، ولماذا تتدحرج العاقر سبع مرات بالذات حتى ينتفخ بطنها بالحمل اللازم لشد الفرحة، ومن الذي أسس لتلك القواعد لولا غياب العقل، هي راية تناقلتها أجيالٌ لتُسلمها إلى أجيالٍ، راية لم يُفكر أحدٌ في نوعيتها، حتى الأجيال المُتعلمة آمنوا بها لمجرد أنها عاداتٌ متوارثةٌ، ومَن هو الشيخ حتى يكون وساطة بين العبد وربه، سعدية منساقةٌ بكلام الزوج غير العارف بتلك الأمور، حلم الطفل يسوقها أمامه كشاة، هناك غصة قوية تضربُ صدره وتكلس يمشي في روحه، وقبضة باردة تعتصره فينزف الوجع، يعرف أنها واقعةٌ تحت ضغط الحاجة، تئن من فرط الألم، وتمشي عكس اتجاه القناعة..

- أوف!

زفر بقوةٍ وخاف أن تكون قد سمعته من وراء الصخور، أبصرها فرآها تبكي، لم ير أحدًا يبكي بهذه القوة، كانت تنتحب، رفعت يدها إلى السماء، خنقتها العَبراتُ فما قدرت على الكلام، كأنها

تشير إلى الله، فقط تشير، وليست بها قدرة على سحب الكلمات من حنجرتها المسدودة بالغصة الثقيلة، تكورت حول نفسها وراحت تهتز، وكأن كل شيء تجاوب معها في نشيجها، لم يحتمل جويد، كاد أن يصرخ، بكى هو الآخر وراحت دموعه تسح، نظر إليها فوجدها لا تزال تهتز، ثوانٍ ورفعت يدها إلى فوق، ودعت الله في السماء العالية، وكأنها تقول أعرف أن هذا خطأ، وأيّ خطأ، لكنك الغفور الرحيم، وأنا العبدة التي أغلقت في وجهها السبل، أسعدتني يا رب حين منحتني عبد الحق، وجعلت الفرحة وعاءً نغرف منه لنلون حياتنا، وجاء الطفل لِيقسو علينا، أنا أحب زوجي يا رب فهب لي ذلك الطفل الذي يقربني إليه ويقربه إليَّ، ويبقى خيطًا يشد جسديْنا إلى بعضهما، ويضمن لنا وصولًا آمنًا لنهايتنا معًا، أنا العليلة جئتُ إلى مقام وليك فلا تخذلني يا رب، ولا تجعلني أمشي بغير فرج للضيق الذي أنا في وسطه ويتسع من حولي.
لم يحتمل جويد أكثر من هذا، عينَاه احمرتا وباتتا مثل جمرتيْن، كان يبكي لبكائها، يعرف أن سعدية طهر لا يُخالطه دنس، وأنها ما جاءت إلا لأملٍ يلوح في أفق نفسها، قام جويد وعقد جلبابه حول وسطه وجرى متسترًا بالصخور ومحاذرًا أن تراه، أخذ يجري ويجري في طريق الخور، سيحكي للشيخ، وسيُحلفه بكل ما له في العالم أن يمنحها طفلًا يحدُ من تعبها، لا يهم ماذا تكون العواقب، سيكون ولدها من أجمل أطفال النجع، وسيجعله يمنحها حلمًا بنصف وعي، سيجعلها فَرِحَة تُهلل كطفلةٍ، كان قد وصل إلى الجبل وقد رأى شجرة الحنظل تشير إلى المكان الذي جاء إليه مع الشيخ، لن تبكي سعدية بعد الآن، ولن تضطر للذهاب للشيخ أمين، وصل إلى بوابة الكهف، سيجعل بطنها يتورم بالحمل الجميل، لا لن يتورم، وهل سيجعلها تنتظر كل هذا الوقت؟ سيهبها الطفل مباشرة، وسيقنعها أنه ابنها، سيجعله راقدًا على يديها، يرضع من صدرها البكر، ويسحب مخزون اللبن المتكوم من تأخره عليها، سيمنح حامد حلمًا أيضًا، سيجعله يتناسى قدمه المعلقة، سيجعل له قدميْن متساويتيْن في الارتفاع، وفي الهبوط، سيرمي بعكازيْه إلى البراح ويراقب تطوحهما وهما ينزلان قطعتين بعيدتيْن لا يحتاج إليهما بعد الآن..
خطا إلى الكهف:
- يا شيخ.. يا شيييييخ..
لم يكن الشيخ موجودًا، ماذا يفعل الآن؟ دخل إلى حجرة البركة ورأى البرقات الصغيرة وهي تتصاعد بنورانيتها، لم يقف كثيرًا وخرج وتمشى في باقي الكهف، عله يجد بابًا آخر يفضي إلى المكان الذي يرتاح فيه الشيخ، لكنه لم يجد أبوابًا أخرى، إذن أين يسكن الشيخ؟ حك ذقنه بسبابته ولم يدر ماذا يفعل، مشى إلى خارج الكهف ونظر هنا وهناك، ونظراته عادت خائبة خاوية من أي أثر لأحدٍ، فقط في البعيد تبدو القطارات وهي تهدر ملتوية كأنها ديدانٌ صغيرةٌ، والنيل يتعرج كحية ميتة، ومساحات خضراء كأنها مبسوطة تمامًا بغير اعوجاج، والجبل البعيد الواضح يبدو كثقلٍ باركٍ على الأرض، والنخيل يشبه عصا صغيرة منفوشة الرأس، كاد ينزل من الجبل لكنه عاد إلى الكهف مرةً أخرى، أمسك بالألواح نظر إلى الأسماء وأخذ يقلب ونحى لوحيْ سعدية بنت حكيمة وحامد بن راسية جانبًا، وبحكم أن النجع مجتمعٌ مغلقٌ فكان يعرف كل أسماء الأمهات، دخل ممسكًا باللوحيْن إلى الحجرة الوحيدة، ووضع لوح سعدية أولًا فتصاعدت سعدية متماوجة إلى سطح البركة، قام وأحضر الوعاء الذي سيقتطع به جزءًا من المياه، وأحضر أيضًا الوعاء ذا الترابِ الأحمر الخاص بنصف الوعي، وأحضر الوعاء المليء بالرمل الخشن، والذي يحدد المدة، لكلٍ من سعدية وحامد، يا ترى كم من المدة تحتاج سعدية للولد في حلمها، سيمنحها سبع حبات رمل فيبقى الحلم لمدة أسبوع كل يوم تتجدد فيه الفرحة، وإن وجدها فرحة بالحلم فسيجعل الشيخ يمنحها أسبوعًا آخر، اقتطع قليلًا من ماء البركة، وأغلق عينيه وراح يُفكر في حلمها، وحين اكتمل الحلم تمامًا في عقله، اقترب من الوعاء ونفخ فيه

برقةٍ وهدوءٍ، راح الماء يتماوج وظهرت سعدية وظهرت حركاتها فقلب محتوى الوعاء في البركة مرة أخرى، فرح جدًا لاكتشافه أن ما يفعله الشيخ ليس خاصًا بالشيخ وحده، أو أن هناك شيئًا خاصًا به موكلا إليه يجعله الوحيد الذي ينسج الأحلام، أمسك بوعاء نصف الوعي الأحمر ونثر قليلا من ترابه في البركة، أمسك بوعاء الرمل، لكنه وقف مفكرًا، لن يمنحها سبع حبات سيمنحها حبة رمل واحدة ليوم واحدٍ فإن أعجبها سيُكمل لها الحلمِ، ووضع حبة الرملِ، انتظر لثوانٍ كما فعل الشيخ وراقب الَحلم وهو يجري على اللوح مترقرقًا من تحت الماء، مدَّ يده وغاص بها وأخرج اللوح من الماء، لكن العجيب هو أن يد جويد لم تتبلل بالماء المتكاثف، لم يقطر منها نقطة واحدة كما يُفترض، لكنه تجاهل الأمر ونظر إلى لوح سعدية، ضحك بجذلٍ وهو يُراقب الحلم، على اللوح كانت هناك صورة لطفل استوحى ملامحه من أمه وأبيه، أبيض يشبه السروال البِفتة الدبلان، له شعرٌ خفيف وعينان واسعتان وفم منمنم، وجعل له ضحكة تهز سامعها هزًّا، وضع اللوح في مكانه وأعاد حبيبات سعدية وأحضر حبيبات حامد، وضع لوح حامد في البركة فتماوج وظهر حامد، كوَّن فكرة حامد في دماغه ونفخها في الوعاء وسكب الوعاء في البركة ووضع له حبة رمل واحدة أيضًا ووضع له قليلًا من تراب نصف الوعي، صبر ثواني حتى اكتمل الحلم في البركة، أخرج اللوح وكان حامد يجري مبسوطًا بالعالمِ ويطوح عكازيه في الفراغ الكبير، تنهد بعمقٍ مرتاحًا تمامًا وخرج من حجرة البركة، توقف قليلًا، لماذا لا يمنح نفسه حلمًا؟ سيمنح نفسه واحدًا وبالتأكيد فإن الشيخ لن يُعارض، يحلم بمن؟ سيحلم بسعاد، سلمان حلم بسعاد من قبل، لذلك لن يمنحِ لسلمان، كيف يجعل سلمان يحلم بسعاد ثم يحلم هو بها؟ ثم إن الأحلام خاصة به، سعاد أيضًا ستكون خاصة به، سيمحو كل أحلام النجع التي تسكنها سعاد، لن يجعل أحدًا يراها- في الحلم- بعد ذلك، رجع وأمسك بلوحه فتصاعدت هيئته إلى سطح البركة، نظر إلى نفسه وقال:

- يا سلام.. كم أنا جميل!

ضحك وراح يُفكر في حلمه، فكر كثيرًا حتى اكتملت رؤيته للحلم بما يليق به، نفخ فكرته في الوعاء ومزج ماءها بماء البركة، وقف أمام تراب الوعي، أيمنح لنفسه نصف وعي أم وعيًا كاملًا، أيختار التراب الأحمر أم الأسود؟ أمسك بالتراب الأحمرِ، ثم قال في نفسه "سأضع التراب الأحمر، والحلم القادم سيكون للتراب الأسود"، وضع فعلًا بعضًا من التراب الأحمر ثم وضع حبة رمل ليوم واحدٍ أيضًا، أخرج اللوح بعد اكتمال الحلم، شاهد نفسه في حلمه، وكان يضحك مرة ويبتسم مرة ويتمتم أخرى "يا سلام" مصمص شفتيه مبسوطًا حين انتهى الحلم، أسند لوحه في مكانه وأعاد الأوعية إلى أماكنها وغادر الكهف.

مَقهَى البَلم

في المساء كانت السهرة عامرةً بالمحبين، ضحكات سلمان تطعن السكون في مقتل كلما أخذ في الانتشار، وقف بين السميعة ونفخ صدره، دار بعينيْه في وجوههم وابتسم، كانوا ينتظرون مقولته القادمة.

- **أقسم بالله العظيم أني حلمت بها.**

تباينت ردود أفعال الشباب من حوله ما بين شهقاتٍ وآهاتٍ ومنهم من هو صامت بانتظار إكماله لحالة الترقب التي وضعهم بها، اقترب جويد من الجلسة، قام سلمان مهرولًا وأحضر كرسيًا، ونظفه من الغبار مع أنه لا يوجد به غبار من الأساس وأشار إليه.

- **تفضل يا سيد الناس.. تفضل يا مولانا!**

وخبط بيديه بحركةٍ مسرحيةٍ متعمدًا ومشيرًا إلى البلم:

- **كل ما سيشربه المعلم جويد على حسابي أنا يا "بلم".**

البلم لم يُعجبه التصفيق ومناداته بهذا الأسلوب، وقف ممسكًا بكوب زجاجي واضعًا فيه خرقة مليئة بالصابون يدعك بها قعر الكوب:

- **وهل لديك حساب في المقهى يا معفن، أنت لا تشرب إلا على حساب الناس، لو لم يجئ قرقار ونجيب وعلي لما رضيت بجلوسك على المقهى، هم الذين يتكفلون بدفع حسابك حين تبسطهم حكاياتك عن سعاد.**

أشار سلمان لرأسه:

- **بالله عليك يا بلم، لا تضيع الدماغ الموزونة التي تعبت فيها اليوم، سآتيك في الغد وافعل ما يحلو لك!**
- **ها ها.. تقصد دماغ الحشيش يا فاجر؟**
- **لا يا بلم.. أقصد الدماغ التي حلمت بسعاد.**
- **كل يوم تقول إنك حلمت بها وأنا لا أصدقك.**
- **يا أخي، والله العظيم حلمت بها في الليلة الفائتة.**
- **أنا لا أصدقك حين تحلف بالله.. احلف بالطلاق!**
- **عليَّ الطلاق من زوجتي التي لا أعرفها.. لقد حلمت بسعاد.**
- **حسنًا.. صدقتك يا سلمان.**

ودخل إلى مكانه وسط الحلقة التي التفَّت حوله وحاوطته مثل سوار بمعصم، ضحك سلمان وهو يشير إلى البلم:

- **هو يصدقني حين أحلف بالطلاق ولا يصدقني حين أحلف بالله، لكنه خاطئ، المفروض ألا يصدقني لو حلفت بالله أو بالطلاق أو بأي حلف آخر، هذا مجنون، والله حتى أنا لا أصدقني!**

واعتدل في جلسته وسط ضحكاتهم وأشار إلى جويد الجالس يراقبه:

- **لن أحلف أني حلمت بسعاد لأنني أعرف أنكم أولاد كلب ولن تصدقوا ولكن أقسم بالله حلمت بها فعلًا، وهذا الرجل يشهد.**

ثم نظر إلى جويد وغمز بعينه له وأكمل حديثه:

- **أنا كنت أعلم أنها ستأتيني في الحلم.**

نظر إلى جويد مرة أخرى..

- **ومثل أي يوم عادي- غالبًا تأتيني في كل الأيام- جاءتني تلبس الأحمر، وأنا لم أكن ألبس شيئًا.**

قاطعه قرقار:

- هذه نعرفها، نعرف أنك منذ خُلقت عاريًا ومن ساعتها بقيت عاريًا إلى الأبد.

ضحكوا لمقولة قرقار، فقام إليه سلمان ودفعه بيده فانكفأ قرقار:

- قم من هنا يا ابن الكلب!

أومأ قرقار برأسه وسط ضحكاته، وربت على صدره كأنه يستعطف سلمان.

- وربي لنٍ أتكلم مرة أخرى، فقط جدد حكاياتك، كل حكاية تشبه حكاية اليوم الذي قبلها.

فكر سلمان قليلًا:

- لعنة الله على الأغبياء.. إذا كانت سعاد عارية تمامًا فأين الإثارة في الأمر؟! وإن أردت التجديد فعليك بطلب الشاي يا قرقار.

زعق قرقار عليٍ البلم وطلب منه كوب شاي لسلمان، مط سلمان بوزه، وأشار إلى جويد.

- وتدفع أيضًا ثمن الشاي الذي يشربه هذا الرجل الطيب، هو الذي له الفضل فيما ستضحكون له يا أولاد الكلب.

ورجع برأسه وأسنده على كفيه وبدأ يحكي- وكما قلتُ لكم أني كنتُ أعلم أني سأحلم بها- كانت تلبس الأحمر و...

كان جويد يُقلب نظره في الأماكن المحتملة لوجود الشيخ، لكنه لم يأت، الوقت تأخر بالفعل، أين ذهب الشيخ؟ أتراه مسح الألواح من الأحلام التي وضعها لنفسه ولسعدية ولحامد؟ أم تركها رحمة منه بهم؟ ما عاقبة الحلم حين تراه سعدية؟ ستفرح فرحًا كبيرًا، هي لن تعرف سبب الحلم، لكنها سترى الحلم مكافأة من الله لها، ستفرح وتقول كنت أعرف أن الله لن يضيمني وأنه سينصرني، وسيأتي الحلم لها كأنه رؤيا، وقف جويد مفزوعًا، ربما ظنت أن هذا الحلم وعدٌ بطفلٍ قادم، ربما فسرت الحلم على أنه رؤيا بحق، وأن الله سيهبها الطفل، هذا خطأ كان منه، حامدٌ أمرهُ يختلف عنها، لا يمكن لقدم حامد أن تكبر أو أن تستقيم، وبالتالي سيعتبر الحلم بالنسبة له كأنه فرجٌ مؤقتٌ، فرحة وقتية لن ينالها في الواقع، لكن سعدية من الممكن أن تظن كذلك، هل يذهب ويمسح الحلم؟! وماذا إن كانت نامت وحلمت وانتهى الأمر؟ رفع رأسه إلى السماء، وقال تخنقه العَبرات.

- استر يا رب، أنت تعلم أني أريد مساعدتها فقط، استر يا رب!

فَرْحَةٌ مُتَخَيَّلَةٌ

هبَّت من نومها دفعةً واحدةً، هزَّت زوجها بقوةٍ فقام مفزوعًا وهو يردد..

- خير خير، اللهم اجعله خيرًا!

كان صدرها يعلو ويهبط بقوةٍ بلا ضابط، أمسكته من فانلته وهزته..

- رأيته يا عبد الحق، رأيته.

أمسك بعبد الحق بيدها وأبعدها بهدوء.

- مَن هو يا سعدية؟

أغمضت عينيْها وسحبت جرعة هواء كبيرة كأنها تسترجع الحلم.

- بالأمس رحت للشيخ أمين كما تعلم، رميت بدني وتقلبت على حصره، بكيت كثيرًا كأني ما بكيت قبل اليوم، المهم أني فعلت ما اتفقنا عليه، دعوت الله، قلت يا رب بحق وليك إن كنت قبلت مجيئي حقق أمنيتي واجعلني أراه في حلمي، يا رب أريد أن أراه، أن أتحسسه، أن أشم رائحته، أنا أعلم أنك لا تُختَبَرِ يا رب، وأنا لا أختبرك يا مولاي، اقبلني عندك، وامنحني إجابة سريعة لسؤلي، وجلستُ قليلاً بعد أن صليت العشاء، وفعلا كنت أشعر براحةٍ غريبةٍ تملأ نفسي وروحي، وبالفعل نمتُ ورأيتني كأنني في باحة كبيرة جدًا، كنت أشعر بحلمي كأني أراه بالعين، وكان على صدري ولدٌ يسطع كالبدر المنير ليلة تمامه، يا الله على عينيه الواسعتين، ضحك كثيرًا يا عبد الحق، وحين التقمِ صدري راح يمصه مصًا، رضع كثيرًا وأنا فرحة ومرتاحة تمامًا لرضاعته، شَعره خفيف مثل شَعرك، عيناه مثل عينيك، يا ربي على ضحكته يا عبد الحق، آآآآآآآآآآآه.

قالتها وارتمت على سريرها، فمال عليها عبد الحق وقبَّلها في وجنتها.

- ألم أقل لك إن الشيخ أمين يستحق ذهابك إليه؟!

- أتصدق يا عبد الحق، إلى هذا الحين والحلم لا يزال يدور في رأسي، كنت أحس بكل شيء في الحلم.

اعتدلت ورفعتْ يديْها إلى السماء..

- يا رب اجعلني أراه مرات ومرات.

احتضنها عبد الحق فدفنت رأسها في صدره وراحت تمسح شَعره الخفيف بوجنتها وهي تضحك.

- أتعرفين يا سعدية، هذه بُشرى، الله يُخبرنا بأن نصبر، البُشرى من الممكن أن تتحقق بعد عام، أو عامين أو حتى عشرة، لكن الله يختبرنا وأكيد هو سبحانه بالفعل يختبرنا، وإلا فما التفسير؟

أبعد جويد أذنه عن الجدار، وقف ملتصقًا بالحائط، الفرحة الآن تغزل خيوطها على نسيج جسده، كان خائفًا وغير قادر على ضبط إيقاع وجيب قلبه، ما قالته سعدية طمأنه، رفع يده إلى السماء، حمد الله أن العاقبة لم تكن سوءًا، وأن عبد الحق فهم أنها بُشرى قد تكون بعد أعوام، ولماذا لا تكون كذلك، ولماذا لا يُصدق أن الله أرسله خصيصًا ليصنع الحلم لسعدية مثلا؟، كل الأفعال التي حصلت كانت تقربه من صناعة الأحلام، اختيار الشيخ له خصيصًا ليعرفه كيف يصنع الحلم، ذهاب سعدية للشيخ أمين وهي جارته، كل العوامل تضافرت من أجل اتجاهٍ ما، كل الطرق كان تتمهد أمامه لكي يمشي مطمئنًا، كل ما حدث حدث لأن الله يريده أن يحدث، إذن ما هو إلا أداة بيد القدر، والقدر هو الذي أرسله لسعدية، وهو الذي جعله يتسمع كل الكلام بينها وبين زوجها، والقدر هو الذي جعلها عاقرًا ليساعدها، وفي النهاية كل مهيأ لما خُلق له، إذن ربما لو وهبها الحلم لمدة أسبوع لكانت حلقت بجناحين إلى الفضاء الرحيب، لحظتها كانت الفرحة ستلون قسماتها، هي دعت الله أن يريها الطفل ليومين أو ثلاثة، وهو الأداة القادرة على منحها ذلك الحلم، ولو وفقه الله للأمر فسيمنحها يومين أو ثلاثة، أو حتى أسبوعًا لا يهم، أما لو لم يرد الله فهذا في علم الله، نعم، الله الذي اصطفاه لهذه المهمة، والله الذي علمه صناعة

الأحلام عن طريق وليه، إذن فإن الله يريد إسعاده وإسعاد سعدية وحامد عن طريقه، ارتاح حين وصل تفكيره لتلك النقطة، مدد جسده على سريره، وكأن النوم كان ينتظر تلك الحركة من جويد، راح وحاوطه واحتواه كأم رؤوم.

****

جويد كان هناك، وسط الجو المشبع بالنسائم الطرية التي تلين الحجر، تهفهف على النفس وتتخللها إلى الروح، ممددًا على مرتبة إسفنجية من تحتها ملاءة مفرودة على الرمال وبجواره منضدة صغيرة وزعت عليها كئوس العصير، كان يرتدي نظارة شمسية، من حوله شجيرات كثيرة تراقصها الريح فتنجب صفيرًا هادئًا وجميلا، وبالأمام ساحل البحر يمتد بحركةٍ ثعبانيةٍ إلى آخر حدود الرؤية، الشمس تضحك كطفلٍ بريء، تغرف النور من داخلها وترميه على الدنيا فتظهر ملامح النهار، وظهرت سعاد في البعيد، كانت تلبس قميصًا أسود مع جسمها الأبيض الرائق فأظهر إبداع صنيعها، اقتربت منه دون أن تترك أثرًا في الرمال المترامية، تمشي كأنها ما تمشي أو كأنها تمشي على الهواء، كانت مليئة بالروائح، كأن مسامها تفرز العطر، وترميه للعالم من حولها، اقتربت تحرك أحمالها متهادية ومطمئنة، رمت له بنظره ناعسة، تمددت بجواره على المرتبة، وراحت تُحرك ذراعًا عاجيَّة وتطوق رقبته، أبعد ذراعها قليلا وأمسك بكأسي عصير، ناول إحداهما لسعاد، راح سرب من طيور يلف حول الشجيرات متصاعدًا بتنغيمةٍ رهيفةٍ، وخفق أجنحة رقيقة، راحت الأشجار نفسها تتمايل وتعزف لحنًا خلابًا متوافقًا مع زقزقة العصافير وهديل الحمام وصدح البلابل، ملكة النحل تجري ومن خلفها سرب من ذكور يبدو كخيط يتمايل ويلف ويدور، السمك يتقافز إلى سطح الماء متكئًا على ذيله، جويد قرَّب الماصة من فمه وراح يرتشف من الكأس التي تزينها ليمونة من الأعلى، سعاد أيضًا قربت شفتيها المكتنزتين وراحت ترشف من العصير، تركا كأسيهما وراحا ينظران إلى بعضيْهما في محبة، صمت العالم كله من حولهما، توقفت الطيور ترنو إلى الرومانسية الحالمة، توقفت الأشجار وهي تمسك بأبواقها في انتظار ما سيكون، توقفت الأسماك ووضعت زعانفها حول وسطها مترقبة، حتى الشمس تنهدت بتحنانٍ وسندت رأسها على كفها، اقترب من فمها، وترك العالم من حولهما يفيض بدهشة القُبلة الأولى، كانت قُبلة طويلة، رقص الجميع، أمسكت كل سمكتين ببعضهما وراحتا ترقصان متوافقتين في الحركات والسكنات، الأشجار تمايلت ونفخت في الأبواق، الحشرات راحت تدور في الفراغ بأحمالها، ملكة النحل وقفت في المنتصف ترقص، والذكور تتمايل من حولها، حتى الشمس مدَّت يدًا وراحت تراقص كائنًا وهميًا، الجبل البعيد أخذ يمط بوزه إلى الأعلى نافخًا نارًا تدور في حلقاتٍ تبدأ صغيرة، وتكبر في دائرةٍ نورانيةٍ تتلاشى في الفضاء الرحيب، والطير هاج في حلقات دائرية اشتبكت بالسماء.

ارْتِدَاد

اتكأ على عكازه ومرر جسده إلى خارج الدار، الشمس لم تكن في حالةٍ من قوةٍ، الهواء يزيح حرارتها ليبسط رداءً من نسائم طرية غزا بها الشوارع والبيوت، الأسفلت كان قويًا وصُلبًا على عكس الأيام التي تشهر فيها الشمس قوتها وتشرعها في وجهه الأسمر، حينها تصب أرطال الحرارة عمدًا على الرؤوس، الأسفلت يأخذ نصيب الأسد فتراه لينًا يؤثر فيه كل موطئ لقدم، يسيح على بعضه كأنه يُعاني صداعًا مزمنًا فتت تماسكه، حامد يغرز القطعتين الإسفنجيتين أعلى العكاز تحت إبطيه، يرفع جسده بمساعدة العكازين والقدم الوحيدة، خطا عدة خطوات وجلس على المصطبة أمام بيت جويد، يعرف أنه لا يستيقظ في مثل هذا الوقت، وما كان ليقطع له نومه لولا الأم التي خرجت لترمي بقايا الريش وحوصلة الطائر المذبوح ومنقاره وبقايا رجليْه إلى جانب الشارع تحت الجدار، رأته فدعته للدخول لكنه أبى وقال لها "إنه يستريح قليلًا"، دخلت إلى الدار، دقائق وخرج جويد وهو يدعك عينيْه محاولًا الحفاظ على توازنه، كان فرحًا، ما زالت النايات تصفر بداخله، لا يزال الطير يرقص والسماء مبتهجة، كان يبدو ذلك واضحًا من ابتسامته الموردة لوجنتيه، كان وجهه مليئًا بالمسرَّة، نظر إلى حامد ومط شفتيه بابتسامةٍ سرعان ما غزت وجهه كله، قال له حامد:

- ما الذي يجعلك فرحًا إلى هذا الحد؟

ربت جويد على كتف صديقه وأمال كتفيه للأمام:

- أبدا هو حلم رأيته بالأمس يا صديقي.

قالها جويد ورأى حامد يسند قبضة يده على العكاز، واتكأ عليه بذقنه:

- أتعرف يا جويد، أنا كذلك حلمتُ حلمًا جميلًا، لأول مرة أحس بهذه الفرحة، حلمت أني أقضي على عجزي، وإلا فما التفسير لتطويحي بالعكازين إلى فراغ العالمِ، جريت في الفضاء الوسيع، لعبت الكرة كما ينبغي لصحيح، سبحت في الماء، كنت أطير، حقًا أطير، لم أكن فرحًا من قبل بهذا الشكل، كأن حلمي يعرف ماذا أحتاج فراح يمدني بالبهجة، كان حلمًا لن أنساه أبدًا، الغريب أنني كنتُ أشعر جيدًا وكأنني أرى الحلم رؤية العين، أتعرف ماذا كنت أفعل حين استيقظت من الحلم الجميل؟

قلب جويد كفيه متسائلًا:

- ماذا كنت تفعل؟

- كنتُ أحرك قدميَّ لأضرب بهما السرير في مختلف الأماكن، الحلم جعلني ألعب الكرة على السرير، كنتُ فرحًا كأنني أحرزتُ أربعين هدفًا، والجماهير ترقص وتغني.

صمت قليلًا، ثم تابع:

- لكنه في النهاية حلم، أعلم أنه لن يتحقق، لكنني كنتُ سعيدًا جدًا به.

نظر جويد إلى حامد، يعرف تمامًا ما يُكابده حامد من مشاق عسيرة، شبك أصابعه على ركبتيه وراح يهتز مستمعًا، وأثناء اهتزازه خرجت الأم تحمل كوبين من الشاي على صينيةٍ صغيرةٍ، أمسك جويد منها الصينية ووضعها بينه وبين حامد، وأيضًا تناول منها "دورق" المياه الذي تحمله بيدها الأخرى.

- أتعبناكِ يا خالة.

قالها حامد فردت الأم:

- تعبك راحة يا ولدي، سنتعب حين نخدمكم يوم فرحكم إن شاء الله.
- ما زلنا صغارًا يا خالة على الزواج.
- يا ولدي نحن لا يهمنا إلا مصلحتكم، وأن تكونوا في راحة دائمًا.

قالتها ولم تنتظر ردًا ودخلت إلى الدار، أمسك جويد بكوب شاي ورفعه أمام وجهه في الشمس ليعرف إن كان خفيفًا أم ثقيلًا، وناول حامد الكوب الآخر.

- خذ هذا كوبك أنت، شاي خفيف لا يضبط الدماغ، أما أنا فلي الشاي الثقيل.

ارتشف جويد من كوبه، ثم سأل حامد باهتمام:

- كلامك يعني أن حلمك كان جميلًا يا حامد.

أسند حامد كوب الشاي على الصينية واعتدل.

- نعم يا جويد، بصراحة كان حلمًا جميلًا جدًا، على الأقل أنت ترى نفسك من زاوية أخرى.

تنهد جويد بعمق، كان خائفًا من عاقبة هذا الأمر، من تدخله السافر في حياة سعدية وحامد، لكن أراحته قناعته بأن كل شيء من عند الله، في الحقيقة أن الله لم يُجبره على صنع الأحلام، لكنه- سبحانه- مهَّد له الطريق لمعرفتها، وكأن هذا خير يريده لحامد ولسعدية وله أيضًا، واختصه الله بالمعرفة ليكون سببًا في سعادتهما، كم ارتاح في حلمه وسعاد تُقبله، ربما اختاره الله لهذا الأمر لأنه يعرف كم الطيبة التي يحملها في قلبه لكل الناس، أراد الله سبحانه أن يكافئه بأن جعله وسيلة لإسعاد الخلق، فرحتهما كانت تعني منحنى جديدًا سيضع فيه أحلامًا لكل النجع، وربما يصنع لهما أحلامًا أخرى، سيجعلهما يعيشان الحالة تمامًا، سيكافئهما على تحملهما، يكاد يقول لحامد اذهب الآن، ويجري إلى الجبل، ليجري إلى الكهف المليء بالفرحة والأحلام المؤجلة، سيعيد حساباته على أساس الفهم، وسيربط كل هذا بوعي كبير.

كان حامد قد شرب الشاي واستأذن في الانصراف، أدخل جويد الصينية ودورق المياه إلى البيت وتوقف قليلًا، ربما تكون هذه نظرية جديدة ستقلب العلم رأسًا على عقب، مَن الذي يُفكر أن معظم معرفتنا عن الناس هي عبارة عن أفكار تمشي بيننا، إذن فحين ينظر جويد إلى شخص ما فمعناها أن هذا الشخص يُفكر فيه في مثل هذا الوقت بالضبط، ومعنى ذلك أنه استقبل فكرته وترجمها رغم عدم معرفته بذلك، هذا يُفسر كثيرًا من الأشياء في هذا العالم، الأفكار التي تأتي للناس محملة بالبنات التي لا يعرفوهن، ثم يفاجأون بهؤلاء البنات في دائرة رؤيتهم فيقع الرجال فيهن لاستدعائهم الحلم، أو فكرة الولد وأمه حين يكاد يقع فتشعر الأم بذلك، من الذي يُخبرها من الأساس كما قال الشيخ؟ ربما هي الفكرة التي ينقلها الولد لأمه، رغم الجدران والحواجز، إذن أفكارنا تعيش بيننا، أنفاس عادية نصرفها ببذخ في الفضاء فيحمل الهواء العشرات والعشرات منها، وتبقى الرؤية الحقيقية التي تقدر على اقتناص القليل منها وترجمته وفك شفراته، وما نلتقطه من القليل يُبرر تمامًا ما نشعر به تجاه الخلق، فكيف يقول فلان إنه يعرف ما الذي يفكر فيه فلان الآخر؟ هو الهواء الذي حمل الفكرة المفضوحة وترجمها، دخل جويد ووقف أمام أمه، كانت الأم تُمسك بخاتم جديدٍ وخيط تلف به على الخاتم من الداخل ليضيق قليلًا فيناسب الإصبع الصغير، بماذا تفكر الأمَّ، أغلق جويد عينيه وراح يتخيل الأفكار التي تخرجها أنفاس الأم إلى الهواء، راح جويد ينفصل عن العالم تمامًا ويسحب الأنفاس بهدوء، كان يتخيل نفسه في مساحةٍ كبيرةٍ فارغةٍ مليئةٍ بالكريات الشفافة البلورية الكبيرة والأم بداخل كل الكريات في وضعياتٍ مغايرةٍ، فمرة تُمسك بأفراخ الحمام "الزغاليل" وتفتح فم الفرخ وتقربه من فمها لتضع فيه الماء القليل، ومرة تخلط النخالة ببواقي العيش الناشف، ومرة تضع منديلًا أبيض مفروشًا على قدميها المفرودتين وتمشط شَعرها المبلل والمخلوط بالجاز على المنديل فيظهر السواد الصغير المتحرك واضحًا، ومرة وهي تُنظف قلب الفرن لتهيئته لاستقبال الأرغفة النيئة والفرن نفسه يرمي بوهج النار إلى الخارج فيحمر وجهها من لفح النار، والدجاج يتقافز من حولها..

- أنتِ لا تفكرين إلا بالدجاج يا أم.

تبسمت في وجهه..
**-	لي أسبوعان يا جويد وأنا أريد الاستحمام وكل مرة أؤجل..**
ضحك جويد وقبَّل رأس أمه، واستدار وفتح الباب متجهًا إلى الخور.

سَيِّدُ الأَحْلَامِ

**-	يا شيخ.. يا شيييخ..**
لم يُجاوبه إلا صدى كلماته يتردد بينِ جنبات الكهف، ضحك وقال في نفسه: "لا بد أن الشيخ راح يرتاح في مكانٍ ما"، تمشى قليلا في الكهف، كل ما فيه لامع، السقف مصقولٌ كأنما شق بآلة حادة وشُذب من كل البروزات وذرات الاعوجاج، حتى الطاقات التي وُضعت بها ألواح الأحلام كأنها صُنعت بالأمس، الكهف بالنهار يبدو متألقًا جدًا، أمسك جويد لوحه، بدأ يُفكر في الحلم الذي سيمنحه لنفسه، ماذا سيحدث لو وضع كل الماء ليجعل الحلم يوميًا؟ سيحلم بنفس الحلم كل يوم، كل المتعة ستتكرر يوميًا، سيكون حلمًا ممتدًا إلى آخر العمر، لماذا لا يكون له حلمٌ ممتد؟ وما العواقب التي يُمكن أن تكون؟ لا شيء، هو مجرد حلم، هل سيتأثر لو تكرر الحلم يوميًا؟ أخذ يروح ويجيء مقلبًا الأمر في عقله، لماذا يضع في حسبانه أنه مثل باقي الناس؟ لماذا لا يكون الشيخ مرسلًا له بالذات لتحقيق ذلك الغرض؟ المتعة، والأمر بيده الآن، والشيخ مُتجاوب معه، حقيقة هو لا يعرف أين الشيخ، ولكن...
وهنا برز سؤالٌ مباغتٌ في عقل جويد، ربما جاء إلى هذا المكان بالذات ليعلمه الشيخ دس الأحلام للناس، وإلا فأين الشيخ؟ ربما كان يُهيئه لهذا الغرض، ربما سيكون مسؤولًا عن أحلام الناس في النجع، وهنا فرح جويد، سيضع أحلامًا تتوافق مع حالة الناس المُتعبة، لن يمنحهم كوابيس أبدًا، سيجعل أحلامهم مُبهجة، حقيقي هو لن يمنحهم أحلامًا بها سعاد، لكنه سيمنحهم البهجة أيضًا، سيُقنعهم بأن هذه أحلامهم، نفض عن عقله الأفكار وحاول التفكير في حلمه، لماذا يُفاجأ كل يوم بأنه حلم بشيء جديد؟ أو بأنه شخصٌ له تكوينٌ مختلفٌ، لماذا لا يستمر حلمه إلى ما لا نهاية؟ لمَ لا يسير فيه بتوازٍ مع حياته؟ الحلم فقط هو من سيجعله الشخص الذي يحب أن يكونه، خليفة كهارون الرشيد مثلًا، يأمر وينهى، سيكون هارون الرشيد بالاسم فقط، بعقله وتصرفاته هو بما يتوافق مع العصر الحديث، لماذا يُجبر نفسه على السكنى في عصرٍ هارونٍ؟ ولمَ لا يحضر هارون الرشيد نفسه إلى العصر الحالي، سيبقى هارونًا عصريًا ماجنًا ومتنقلًا بين كؤوسٍ الخمر وأحضان النساء، سيبتدع شخصًا مثل أبي نواس يكون له شيطانًا شعريًا يتحفه بالشعر الجميل، لكن جويد لا يشرب الخمر، لماذا يُفكر في الخمر كأن الخمر أحد أسباب الفرحة؟ ولماذا تلك الرؤية التي حاوطت عقله وسيطرت على مفاهيمه؟ الخمر لم تكن

يومًا احتياجًا شخصيًا له، ومنذ متى كانت الخمر تعبيرًا عن الحرية وانطلاقا لمعرفة المعنى الحقيقي للوجود؟! ربما كان هذا الأمر إسقاطا عقليًا تأثرًا بما شاهد من أفلام، يفكر في الخمر وهو لم يجربها قبل ذلك، ولم يرها كأنها معنى مُتجسد لحرية الفرد عند امتلاكه لزمام أمره؟ النساء هن ثمرة الكون، واحتياج فعلي لاستمراريته، لو وقعت صناعة الأحلام بيد امرأةٍ فلا بد أنها ستختار رجلًا لم تره عيناها أبدًا، رجلا ربما سيكون مختلفًا عن كل رجال النجع، ستضع فيه كل التصورات عن الاحتياج، وبالطبع ستختلف الصفات باختلاف صفات المرأة المحددة للاحتياج، منهن من ستحبه قويًا غاشمًا يُحارب من أجلها العائلات، يجلب لها الانتصار تلو الآخر، ثم يرجع ليستكين بين ذراعيْها مثل رجلٍ صَقلي يمسك صدغ زوجته بيسراه ليقبلها بينما يمناه تُردي القتلى، منهن من ستُحبه رومانسيًا حالمًا تكاد حروف كلماته لا تُسمع من فرط رقته، ومنهن من ستُحبه غنيًا يُعاملها كملكةٍ متوجةٍ على عرش، إذن فهو لا يفعل شيئًا خاطئًا، كل شخص في هذا العالم يتمنى أن يصنع حلمه بيديه، من المفترض أن الحلم جسرٌ طبيعي إلى الواقع، تحلم لترى واقعك وتُجمله، تحلم لأن الخيال هنا أرحب وأوسع وفضاؤه لا نهائي، تحلم لأن الحلم يحمل الجديد المفتقد في حياةٍ رتيبةٍ ومملةٍ وتمشي على وتيرةٍ واحدةٍ، ما الذي يُمكن أن يحلم به جويد فيجعله منتشيًا مغلقًا عينيْه ومتنسمًا لعطرٍ تضوّعت به الأشياء من حوله، سيكون ملكًا للعالم مثل الأربعة الذين ملكوه من قبل، وما الذي سيعود عليه من الملك؟! حتى التاريخ لن يذكر عنه شيئًا، وسيبقى نسيًا منسيًا بمجرد اختفاء ومضة العين.

- بأي شيء تريد أن تحلم يا جويد؟

سأل نفسه وعصر دماغه، إنه يُحب أن يكون له حلمٌ متجسمٌ، يتذكره كل يوم وفي نفس الوقت يكون متجددًا، يستمر لمدة أسبوع أو شهر فلن يجد ملك الأحلام بعد ذلك، وستكون الفرصة قد ضاعت في حلم مكتملٍ، وستقتصر الفرحة على هذا الأسبوع أو الشهر، ربما سيأتي الشيخ ولن يُعجبه أن يضعَ جويد لنفسه حلمًا ممتدًا، وربما يمسحه، لكنه سيكون قد رآه، وبالتالي ربما يستطيع إقناعه بمدِّه شهرًا آخر أو حتى سنة كاملة، إذن لماذا يُحَجِّم الأمر وكل شيء أمامه؟! سيجعل حلمه ممتدًا إلى ما لانهاية، كل يوم سيرى سعادًا، ليس بسعاد وحدها وإنما...

ضرب ناصيته بيده وهو يضحك..

- من أين لك هذا التفكير يا جويد؟

لماذا لا يحلم بأنه الأدهم؟ نعم سيقلب الآية، سيجعل نفسه مثل الأدهم بعنفوانه وجبروته، ثم إن سعاد ستبقى في إصبعه مثل خاتم، ستقلع ملابسها بمجرد الإشارة..

- ها هاهاهاها...

أعجبه وصفه لقلعها بمجرد الإشارة، ولمَ لا تبقى مهيأةً دائمًا وأبدًا للحظات الحميمية؟! سيجعل أباه رئيسًا للعمال، سيضرب الأدهم، ربما يُضفي بعض التفاصيل غير الموجودة في الواقع لتُجمل الحلم، سيبني بيت الأدهم من جديدٍ، سيجعله قصرًا كقصور القرون الوسطى، سيفرز خياله أنواعًا جديدةً من البناء، لماذا لا ينقل النجع كله إلى شاطئ البحر؟! سيكون كل شيء كما يقول المثل "عيش مخبوز.. وماء في الكوز"، وقتها لن يفعل إلا "صنعة الديك"، ضحك طويلًا، انتبه وأكمل تفكيره، النجع سيكون كما هو تمامًا، أرض كبيرة مزروعة بالقصب والقمح والذرة والطماطم والخيار والبطيخ وأشجار المانجو والبرتقال والليمون، وستكون هناك أيضًا تكعيبة عنب، سيأكل فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف، في الأساس لن يكون هناك صيف وشتاء، سيرسم جوًا مُبهجًا دائمًا وأبدًا، رسم في عقله شارعًا وقسمه لأربع حارات، اثنتان في كل اتجاه، لم ينس أن يقسم الحارات بمستطيل طويل زرعه بأشجار ونخيل، الورد هنا بجميع أنواعه الأخضر والأزرق والأحمر والأصفر والأبيض والأسود، لكنه لم ير

وردًا أسود من قبل، لا يهم بل على العكس زاد من قوة اللون الأسود حجمًا وكثافة، رسم بروزًا على شاطئي الطريق، رسم بيتًا كبيتهم يطل على الشارع، لماذا بيتهم؟! ضحك وقال في نفسه "حتى في الحلم سأحلم ببيتي!"، أيطرد الفقر ليجده في الحلم؟ أرهف السمع وكأنه يسمع صوت أبيه، كان صوتًا داخليًا من منطقةٍ عميقةٍ في وعيه.

- أيعني هذا أنك إذا أصبحت غنيًا ستتركنا يا بني؟

ارتسمت صورة الأب وهو يتمايل في فراغ الكهف بقدمين لا تمسان الأرض، جويد كان يرى أباه يدور حوله ويُكلمه بصوتٍ رخيم ومؤثر، وحين انتهى الأب من عبارته أشار جويد بيده..

- ولماذا أتركك يا أبي؟ ولمَاذا تشدني أنت إلى الأسفل، سنترك بيتنا القديم وسنسكن في القصور؟

أتاه صوتُ الأب أكثر تأثرًا وبنشيج واضح كأنما هو على أعتاب بكاء:

- يا ولدي هذا البيت بجدرانه الصماء، بفتحات أبوابه وشُرَّاعاته سيبقى شاهدًا على كل لحظات فرحنا وحزننا، ولنا في كل جدارٍ ذكرياتٌ كثيرةٌ لأيام مرَّت.

أشاح جويد بيده إلى الإمام:

- لا يا والدي سأعدك أنني سأكون وفيًا لهذا البيت بتركه مكانًا كبيرًا للذكرى.. ولا يعني هذا أنني سأعيش فيه بالطبع.. في الحقيقة أنا لن أفرط فيه.

أتاه صوت الأب ضاحكًا:

- أتريد الأحلام لوحدك يا جويد؟ أبلغت بك الأنانية هذا الحد؟ ثم إنْ كبرنا أنا وأمك وحدنا بالبيت فمن الذي سينظفنا من الوسخ حين تعجز أيدينا عن هذه الأفعال؟ من الذي سيأخذ بيدي إلى المسجد ويرعى حالي إلاك؟ أرى أنك أناني، على الرغم من أنني لم أورثك هذه الصفات.

ضحك جويد وهو يقول:

- أنا مخطئ بالفعل لأني استشرتك يا أبي...

قالها ونفض تفكيره فراحت صورة الأب تتماوج كأنها تهتز تحت ماءٍ رقراقٍ ثم تلاشتْ تمامًا، هنا استدعى جويد عن حلمه كل ما فكر فيه قبلًا ورسم آخر تفصيلات حلمه في فكرته، رسم سورًا كبيرًا وحديقةً حوتْ من صنوف الأشجار والحيوانات والطيور، رسم حمام سباحة بعدة درجات في العمق ستكون به سعاد عارية تمامًا، فرك جويد يديْه بقوةٍ:

- هذه فرحة كبيرة قادمة.. يا إلهي لا أكاد أصدق أني سأحلم بهذه الأشياء الجميلة.

أمسك بلوحه ودخل إلى حجرة البركة، كانت البرقاتُ النورانيةُ تتصاعدُ بجمالٍ أخَّاذٍ، أمسك بوعاء الرمل الخاص به، وضع اللوح في الماء وأمسك بالوعاء الذي يركز الأفكار واقتطع جزءًا من المياه، ركز في الفكرة تمامًا وأدارها في دماغه بنفس الكيفية التي فكر فيها وقرب فمه من الوعاء ونفخ الفكرة على سطحه بهدوء، سكب الوعاء في البركة وسند الوعاء بجواره وأمسك بالوعاء المليء بالرمل، وضع حبة رمل، وفكر، وضع الثانية وفكر، ثم دلق الوعاء كله داخل البركة، وقف وراح إلى الأوعية الخاصة بالوعي، أمسك بوعاء التراب الأسود والذي قال عنه الشيخ إنه وعيٌ كاملٌ، وضع القليل من التراب في البركة، فكَّر قليلًا ثم وضع ثانية، فكر ثم دلق نصف الوعاء في البركة، قام وسند الوعاء بجوار إخوته، لم يعرف ما الذي يعنيه وضع الكثير من التراب في البركة، لكنه نفض الأمر عن دماغه وأمسكَ بالأوعية وأرجعها إلى مكانها، راح إلى البركة وراح يُراقب حلمه، سحب لوحه منها، انتظر قليلًا وراح يُراقب الحلم وهو يبتسم، تنهد بفرح وسند لوحه مكانه.

أمسك بحلم سعدية وكرَّر لها نفس الحلم، وضع لها سبع حبات رمل، وأمسك بالوعاء الأحمر ومنحها قليلًا منه كما يليق بحلم تتذكر تفاصيله وتعيشه، وأمسك لوح حامد وجعل له نفس عدد

حبات الرمل ونفس الوعي، فرك يديْه، كاد أن ينام من فرط الفرحة على الأرض لكي يهيئ نفسه لغزو الحلم، لكن ربما سيرى الحلم في فترة النومِ الليلية ولو نام الآن لما زاره الحلم، هو لم يسأل الشيخ عن هذه النقطة، لكنه كان فرحًا فعلًا، جميل جدًا أن تصنع فرحتك، والأجمل أن تشعر بكل ذرة فرح في داخلك، تترك وعيك تمامًا لتذوب كُلية، تلك الرعشة التي تضرب الجسم والنظرة المليئة بالانبساط. الخطأ بالنسبة لجويد نسبي تمامًا، والنجاح نسبي أيضًا، فما يراه خطأ ربما يراه الآخرون صوابًا، إنها عتبات النظر وتحوُّل الرؤية بحسب الرائي، ترك الكهف وأخذ ينزلِ من الجبل بنعومةٍ منتشيًا من فرحة مقبلةٍ كأن هذه الفرحة هي تتويجٌ لحياته التعسة، توقف قليلًا، وهل الفرحة كانت بيده؟ وجود الشيخ في الزمان والمكان الذي يتواجد به، كلام الشيخ عن الصدفة، ما عرفه من مكافأة الله لعبيده، كلها أمورٌ مهَّدت له نسج أحلامه وغزلها بما يتوافق مع فرحته، جويد يُصلي ويعرف الله تمامًا، طبعًا ليس حق المعرفة، ومَن في النجع يعرف الله حق معرفته، ومَن في العالم يعرف الله حق معرفته، كان يعلم تمامًا أنه في زمنٍ كثرت فيه الأخطاء، لا يوجد أحدٌ بلا أخطاء، ولكن قلة الخطأ تجعله بلا أخطاء، تمامًا كالخير والشَّر، كثرة الشر تجعل أقل الناس شرًّا هم الأخيار، نفض تفكيره ومشى يتطوح مُدندنًا بلحن أبو سعاد:

- "هات الغلاي وصب الشاي

اقعد يا أبو خاله اتحكى معاي

إن كنت تعوز نفسين جوزة

إحداي وشايلها للعوزة

واللي تشيله للعوزة

أهو ينفع ف اليوم الجاي"

كان يرفع جلبابه ويمنح نفسه للعالم كله، يرقص كأنما ما رقص من قبل، يرفع جلبابه أحيانًا ويُغطي رأسه، يدور يمينًا ويسارًا متوافقًا مع كلمات اللحن، يمنح صوته العالي للفراغ بما لا يليق به في عقول الناس، يعرف أنه لا يصح أن يراه أحدٌ يرقص، جويد له هيبة ومكانة في عقول أهل النجع، كان عقلانيًّا بشهادة كبيرهم قبل صغيرهم، له عقلٌ يعرف تمامًا متطلبات الظهور كشخصٍ ناضج، تسامحه اللامحدود جعله مثلًا حيًّا يُحبه الناس، وعلى الرغم من أحدًا لا يراه لكنه وقف وعاد إلَى هدوئه، انتظم قليلًا في المشي كأن هناك أحدًا يُراقب فعله، لكنه وقف ونظر إلى أول المدق الترابي وآخره، لم يكن هناك أحدٌ، هل معنى ذلك أن يبقى رزينًا حتى في حال عدم رؤيتهم له، أما يكفي عقلانيته في وجودهم وفي الأفراح الخاصة بأهل النجع، لذلك رفع جلبابه كما كان ورقص وانتشى، تطوَّح أكثر وانطلق يطير في أجواء العالم الوسيع..

- "هات الغلاي وصب الشاي

اقعد يا أبو خاله اتحكى معاااي

أؤمر واتأمر على كيفك

إنت اللي موجب وأنا ضيف

متقوللي بس إيه شوفك

ف الونسة والجو مصفاي

هات الغلاي

وصب الشاي

اقعد يا أبو خاله اتحكى معاي"

توقف عن الغناء والرقص حين بدا مقام الشيخ أمين واضحًا من بعيدٍ، وكانت هناك كتلة سوداء تقترب رويدًا من المقام، ركز حدقتي عينيه في اتجاه القادم وحدَّد أنها سعدية من وقع خطوتها وميلها مع كل خطوةٍ، كانت تحمل شيئًا ملفوفًا فوق رأسها، مشى بهدوءٍ متخفيًا بالصخور الكبيرة، أسرع الخطى حتى اقترب من الصخور الكبيرة التي تحيط بالمقام، استتر خلف واحدةٍ منها، نظر إلى سعدية ووصلته الشهقة العالية، كانت سعدية تبكي بحرقةٍ على باب المقام وكانت تردد وسط نشيجها:

- سامحني يا شيخ، لقد أخطأتُ في حقك، أنا التي لم أعرف قدر مكانتك عند الله، لك الحق عليَّ كثيرًا يا مولانا، لقد رأيتُ الطفل، وصدقني حين أقول إني لو حاولت أن أفكر بملامح طفل لما قدرت على ابتكار ملامح بمثل الجمال الذي كان في الحلم، أنا شاكرة لك يا شيخ، ولهذا أحضرتُ لك بعض الهدايا.. هي عبارة عن امتنانٍ صادقٍ.

وأخرجتْ من كيسٍ معها بعض رايات مخضبة بالحناء، وراحت تزرعها بين الأحجار المكونة للمقام الصغير، أمسكت بعدة حصرٍ مركونةٍ على البوابة الحجرية القصيرة، وراحت تلم الحصر القديمة وتفرش الحُصر الجديدة.

- أنا لا أطلب إلا رضاك يا مولانا، بالله عليك امنحني رؤيته، أنا محتاجة إليه بشدة، حتى لو كان في الحلم، بصراحة أنا غير قادرةٍ على الصبر، كم أحتاج إلى أن أكون حُبلى، لكن أمر الله نافذ، أنا راضية بحكم ربي، راضية وصابرة، صحيح أن الحمل ثقيلٌ لكنني راضية، صحيح أن الهمَّ كبيرٌ والأكتاف غير قادرة لكنني سأحتمل، يا رب ببركة الشيخ أمين الجميل اجعلني أحلم به كل يوم، يا رب ببركة الرسل والأنبياء كلهم وحبيبك الشيخ أمين.

قالتها وانخرطت في نوبة بكاء، جرى جويد إلى الكهف، ستموت المسكينة إن منحها حلمًا واحدًا يذكرها بولدها غير الموجود إلا في داخله وداخلها وفي اللوح، في اعتقادها أن الشيخ أمين هو الذي منحها الحلم، وإن منحها الحلم لمدة أسبوع فربما تؤمن بالشيخ أمين نفسه كإله، لا بد من إيقاف حلمها ووضع حلم لها يجعلها تفهم أن ما حدث كان إرهاصات أحلام، وأنه ليس رؤيا ولا بُشرى ولا يحزنون، دخل الكهف وأمسك بلوحها، حاول أن يشطب حلمها فلم يقدر، راح إلى البركة التي تتصاعد يرقاتها النورانية ووضع اللوح بداخلها، تصاعدت صورة سعدية وهي تمسك بالطفل الجميل وتهدهده وتمنحه صدرها فيرضع بنهم، أمسك بالوعاء واقتطع جزءًا من ماء البركة وفكر في حلمٍ آخر ثم نفخ فكرته في الوعاء ومزَج ماء الوعاء بماء البركة، لكن الحلم تلاشى تمامًا وظلتْ صورةٍ سعدية فرحة تمامًا بطفلها، أخرج اللوح وكان لا يزال الحلم تجري أحداثه، حاول مرةً ومرةً وما نجح في شطب حلمها، أو حتى مجرد تعديله، كان واضحًا أن اللوح لا يقبل أي تفاصيل بخلاف الحلم الأساسي، جلس جويد بجوار البركة وسند ذقنه براحتيه متكئًا على ركبتيه بمرفقيه، ربما سيجعلها تكفر بالله، كانت مؤمنة تمامًا وتعلم تمامًا أن الأولياء بشرٌ لا قدرة لهم على الوساطة بين الله وعبيده، وربما تتغير نظرتها الآن إليهم جميعًا، ستقدسهم وربما تدعوهم أنفسهم بعد ذلك، لا.. سعدية ليست ضعيفة بهذا الشكل، فقط ستتعب ليومين لا أكثر، ولِمَ تتعب ولِمَ تكفر من الأساس، ألم تدعو الله في رحاب الشيخ أمين، لكن الله موجودٌ في كل مكان، إذن لماذا اقتصرت على دعوته سبحانه بداخل المقام، ألا يُعد هذا تبجيلًا

لصاحب المقام كأن الدعاء يصح في أماكن ولا يصح في غيرها؟ الله موجودٌ في كل مكان، وبالتالي فحلمها بالطفل لمدة أسبوع كامل قد يُزحزح تلك العقيدة، هل الدعاء بوساطة الأولياء حقيقي ومُباح؟ جويد يعلم أن رجال النجع يفكرون كأن الولي يملك مقاليد الجنة والنار أحيانًا، يأخذون التراب لينثروه في بيوتهم لتحل البركة والأمن من غدر الأيام الصعبة، يرتحلون إلى الأماكن البعيدة مُحملين بالوجد ويذبحون الخراف تقربًا مثلما يحدث في مقام أبي الحسن الشاذلي، جويد ناقش هذا الأمر وقال إن هذا كفرٌ، حقيقي أنه لا يعلم ما في ضمائرهم، لكنه بشري، رؤيته محدودة، ولا يحكم بعيدًا عن رؤيته، ثم إن قراءاته تؤهله للحكم عليهم، ودائمًا ما كان يقول إن تقبيل الخشب المنمنم المُحيط ببعض المقامات مثل أبي الحجاج الأقصري وعبد الرحيم القنائي هو نوعٌ من عدم فهم ووعي قليل، كان عقل جويد يغيب ويرجع، أحس أنه لا يفهم شيئًا على الإطلاق، يبحر في أمور لها غيبياتها، ولا يعرف عنها شيئًا، ربما تؤدي به إلى عصفٍ جنوني، وقف وتنهد، أمسك باللوح في يأسٍ، قام وسنده في مكانه وخطا إلى خارج الكهف.

وَاقِعٌ آخر

الحلم هذه المرة لم يكن حلمًا عاديًا أبدًا، حين وضع رأسه على الوسادة كان يعرف أنه سيحلم بما وضعه في لوحه من قصر وشوارع وفواكه وورود، وحين بدأ الحلم لم يكن يتخيل أنه حلم لولا تغير المنظر فقط من حوله لكنه لا يبدو كحلم، كان يحس بكل شيءٍ، وهو العارف أن الحلم دائمًا يكتفي بإيصال الفكرة ومدلولها فحسب، لكنه يشعر بأن له صورةً أعمق من ذي قبل، إنه يحس بنفسه وبتفكيره، كل الأشياء تبدو واضحةً بصورةٍ حقيقيةٍ، يلمس الجدران فيحس بخشونتها في يده، يلمس لحاء الشجر فيحس بتجاويفه الصغيرة، يدوس على فصوص الثرى فيحس بالوخز، ليس وخزًا لحظيًا كما الأحلام العادية، إنما وخزٌ مستمرٌ باستمرار وطئه للفصوص، لم يكن هناك شيء رمزي أو تجريدي، لا إنه ليس حلمًا، إنه واقعٌ موازٍ، وعي آخر مُقابل لوعيه، فزع كثيرًا لهذه المسألة فحتى تفكيره منطقيٌ تمامًا، كان ينتظر خروجًا عن المألوف يشعره أن ما يحياه الآن مجرد حلم، أن يسمع شجرةً تتكلم، أو يرى كلبًا برأس حمار، أو شيطانًا في صورة ضفدع، أو حتى سمكة تمشي على قدميْن، أي شيء من شأنه أن يُشعره بأنه في حلم، إنه يكاد يُخطط لواقعه من حلمه، وهذا الأمر يُقلقه، الحلم في النوم لا يبلغ ثواني معدودة، لكنه يحس بأن حلمه يمتد بامتداد الزمن الطبيعي، وهذا يُقلقه أيضًا، وربما يكون زمن الحلم سابقًا لزمنه في الواقع، من الممكن لحظتها أن يكبر في حلمه عن حقيقته في الواقع، وربما يكبر عدة أعوام في الحلم الواحد ليشيخ تمامًا بعد عدة أحلام، بينما هو شاب في الواقع، سيبلغ الستين وهو في العقد الثالث وربما يموت في حلمه فيموت في واقعه طبقًا لإسقاط الحلم وتأثيراته على جسده الواقعي، حين وصل إلى تلك النقطة سمح للقلق أن يفور على ملامحه، هذا صحيح، الموت هنا يعني الموت في الواقع، ودائمًا من رحمة الله بعبيده أن الناس تستيقظ قبل الموت في الأحلام، فلو أن رجلًا مثلًا وقع في بئر فإن العقل يُهيئ للحالم أنه يقع فعلًا،

وبالتالي يتفاعل الجسد مع الوقوع، ولو ارتطم بقاع البئر لمات فعليًّا وموته في الحلم سيعني موتًا حتميًّا في الواقع.. لكنه لم يعش في الحلم سوى لحظاتٍ، وعليه أن ينتظر ويتأكد من سير الزمن الفعلي في حلمه بما يُماثله من زمنٍ في واقعه، ترك الأمر برمته وإن لم يستطع محو القلق الذي غزا ملامحه، دخل من السور المحيط بالقصر، وكانت الدنيا ترتع في البهجة من الداخل، الطيور تغرد على الأشجار، وحمام السباحة عميق والمياه صافية تمامًا فيظهر القمر مُنيرًا للقاع بشكلٍ مبهرٍ، الأشجار تتسامقُ في الفراغ، أنواعٌ شتى من الفواكه، الضوء يضرب الأماكن فتظهر ملامحها كلية، مجرى صغيرٌ يلف القصر بالمياه والبستاني يبرع في تلبية احتياج النبات، كان أبوه جالسًا في البعيد تحت شمسيةٍ تبدو كمظلةٍ نهاريةٍ، لكن ثباتها ليلًا كان لاحتلالها موقعًا متميزًا، ولاشتباكها مع الأرض بجزءٍ خرسانيٍ، كان يُمسِك بالعصا الخيزران، يطوحها فتصنع خللًا في الهواء الراكد وتُصدر صوتًا حادًّا طوليًّا وممطوطًا.

- يا أبي.

استدار إليه الأب ونظر إليه بجمودٍ واضحٍ.

- هل نحن في حلم يا أبي؟

أجاب الأب:

- نعم.. نعم.. نحن في حلم.

الأب قال العبارة بالضبط كما كان يتوقعها جويد، يتوقعها حتى إنه كان يردد بينه وبين نفسه حروف كلماتها أثناء رد أبيه، لذا فقد مال على أبيه وسأله سؤالًا آخر:

- كم الساعة الآن يا والدي؟

- الساعة الآن الحادية عشرة مساءً.

سحب جويد كرسيًا وقد فهم اللعبة تمامًا، إن الأب يتكلم بما يتوافق معه، كل شيء هو نتاج عقل جويد، لكنه في الحلم بذلك الوعي المدهش، الآن كل ما حوله هو زيادة على حياته، وليس تحولًا في حياته نفسها، فمثلًا ماذا لو حاول أن يقتل أباه مثلًا؟ أو حاول أن يجعل نفسه ابنًا لأحدٍ آخر غير والده الحقيقي، أسيقبل عقله ذلك؟! بالطبع لا، لأن العقل يُحدد نقاطًا لا ينبغي تجاوزها، فكر في محاولة إدراك تلك المُعضلة، هل تفكيره حقيقي، أم أن الأمر يحتاج بعض التجريب؟ هل الأب وغيره حقيقي؟ هل هو نفسه حقيقي؟ المفترض أنه نائمٌ الآن، وبالتالي لو جرح مثلًا أو استحم أو تعب؟ هل سيكون ذلك مؤثرًا عليه؟ ولو لم يكن مؤثرًا فكيف يحلم ببنتٍ ليُفاجأ بأنه احتلم؟ كيف كان يحلم بكابوسٍ ثقيلٍ ويستيقظ خائفًا وينظر حوله بريبة؟ نعم إن شخصيته في الحلم منسلخةٌ من شخصيته في الواقع، إذن كل شيءٍ حقيقي تمامًا، نظر جويد إلى العالم من حوله، كان العمال مُنهمكين في أشغالهم، يعملون بجدٍ ربما لأن وعيه أرادهم على تلك الصورة، ولكن مَن الذي جعلهم يعملون ليلًا؟!! هذا منافٍ للواقع، تلاشاهم تمامًا، جلس على كرسي تحت شجرة من أشجار "الفيكس"، أبعد كل شيء دخيل على فكره حتى لا يفقد المتعة، قام ودخل إلى القصر الجميل ورآها، كانت تقف مرتكزةً على حرف الدرابزين الخشبي للسلم، تضع قدمًا على الأرض والأخرى على أول درجات السلم الرخامي، وقوفها بهذا الشكل سمح لقميصها الأسود القصير بالانحسار لتظهر الفخذ عاريةً بهيةً، أطراف القميص الدانتيل تصنع مع الفخذ عَلاقةً جماليةً متشابكةً من لونيْن أبيض وأسود، جمال كل منهما يبدو متسقًا ومتفاهمًا مع الآخر، وفي الأعلى كان نهداها يبرزان من تحت قبضة السوتيان الأسود، كانا يبدوان كقطعتيْن نهاريتيْن متلاحمتيْن تطوقهما يدان ظلاميتانٍ موجعتان، وقف جويد مذهولًا، وسعاد وضعت طرف أنملها السبابة في فمها وجعلت له حركة دائريةً على طرف اللسان، ومن عينيْها تطل رغبةٌ عظيمةٌ، حركة الفخذ مع اليد مع اليد الأخرى التي تتكئ على الخصْر مع العينيْن يُشكلون عالمًا شهوانيًّا

بامتياز، حين تقدم جويد استدارتْ سعاد، ومع استدارتها بان عظيمُ التكوين، عالمٌ كامل يترجرج بحريةٍ ودفءٍ، حركة المشي المتمايلة بقدرةٍ كانت تصنع إعوجاجًا جميلًا، فيزيد عالمٍ ويقل عالم، ومع التزايد والتناقص تنبع حركاتٌ أخرى ومنحنياتٌ ورجرجةٌ واندهاشٌ جميلٌ، توقفت سعاد أمام باب إحدى الغرف ثم أدارت المقبض فانفتح الباب، وقفت وأشارت بيدها إلى جويد للدخول، تسمَّرت عيناه على حجرة النوم، لم يكن يتخيل أن عقله قادرٌ على صناعة هذا الكم من الجمال، سرير موزون بمرتبتين وبطانية لها عدة ثنيات ذات وبر جميلٍ، وهناك دولابٌ عظيم الحجم تداخلتْ ألوانه الأسود مع الذهبي والرتوش المنمنمة بالفضة ليصنع تكوينًا بديعًا، بالإضافة إلى البروز والانخفاض عن وفي مستوى سطح الضلف الخشبية متباينة الطول والحجم، مما أضفى بُعدًا آخر لملامح جماليةٍ أخاذةٍ، ومن الناحية الأخرى كانت هناك مرآةٌ مؤطرةٌ بحدٍ خشبي يلتف وينثني متوافقًا مع حدود المرآة نفسها ويشتبك ضلعاها في النهاية مع مساحةٍ كبيرةٍ مسطحةٍ، فرش عليها لوح من الزجاج فانعكست أدواتُ التجميل عليه وصنعت ظلًا بديعًا، التسريحة كلها مستقيمة على أربع أرجل تبدو في انحناءاتها مثل الميل الخلفي لأقدام الحيوانات، هذا غير الستائر الموشاة بالخطوط الطولية والمرشوش عليها ورود صغيرة مختلفة الألوان والأحجام، الستائر ترفرف بهدوءٍ في حركاتٍ انسيابيةٍ تُشبه لاعبات الباليه، الإضاءة بيضاء خفيفة لكنها مُبهجة وبها شيء من الدفء والحميمية، كل ما بغرفته جميل ويدعو للبهجة.

تنهد بعمقٍ ولفظ أنفاسًا حارةً حملت كل قلقه للخارج، سحب زفيرًا عميقًا مملوءًا بالارتياح والطمأنينة، راحة عظيمة سرت في بدنه، تقدم ليجلس على طرف السرير، كان يعلم تمامًا أنه لم يُخطط لشكل حجرة النوم ولكن عقله أدرك المسألة فبات يمده بما يتوافق مع رؤيته لدرجة الدهشة، وكان يعلم تمامًا أن كل ما هو مصنوع هنا راجع إلى تخيل العقل، فلو أن أحدهم لا يُفكر وقام بوضع حلمه بهذا الشكل فإن العقل لن يمده بهذا القدر من الجمال، وإنما سيتكيف تمامًا مع محتوى العقل لأن الجمال نسبي بحسب الرائي، تقدمت سعاد لتمر بجواره محركة أحمالها الجميلة، أثناء مرورها رفع يده وضربها بخفةٍ على ردفها الغني باللحم، استدارت وأوقفته فاقترب من عُنقها ومال ليطبع عليه قبلة، كان جويد يعلم أنه في حلم لكنه كان يرتعش، لأول مرة يقتربُ من أنثى بهذا الكم من الحس، وكانت تتمايل بدلالٍ، وكان ينتشي ويرتعد، وكانت تُحرك رقبتها بحنو، وكان يميل متوافقًا مع الميل، وكانت تُطاوعه تمامًا، وكأنها تفهم عقله فتتحرك بمجرد تفكيره في الحركة القادمة، تميل إذا فكر في الميل، تزم شفتيها معلنةً عن قدوم قُبلة أو تُغلق عينيْها تأثرًا كلما فكر، كل شيء هنا حقيقي تمامًا، ارتعاشاته نفسها كانت تؤكد له أن حلمه ليس حلمًا، هو واقعٌ آخر، وإلا لماذا يخاف، وهنا برز سؤالٌ دق في عقله، هل سيُحاسبه الله على هذه الأفعال؟ ما دام يملك عقلًا كاملًا يتحكم في مجريات الحلم فربما يُحاسبه الله، على اعتبار أن حلمه ليس حلمًا عاديًا وإنما هو مالكٌ حقيقي لحق التصرف فيه، أقلقته تلك المسألة وكادت أن تضع متراسًا بينه وسعاد التي تعيش لحظتها في عالم آخر من جمالٍ، هل ستُحاسب سعاد معه على أفعالها في حلمه؟ هل ستكون مشاركة معه فيَ الجُرم، بالطبع لا، هي جاءت مرغمةً ولا تعرف أنها هنا تقدم جسدها على طبقٍ ذهبي، هي في الأساس لا تملك حق القبول والرفض، هي هنا لأنه من يملك حق التصرف فيها، إذن فهي ليست متضررةً من العَلاقة، ولن تشكوه إلى الله، وبالتالي فإن الجُرم- إن كان هناك جُرم- سيكون له وحده بعيدًا عنها، كان هذا يُريحه نوعًا ما، ربما لأن ابتعاد سعاد عن دائرة المحاسبة كان يعني التقليل من حجم الجرم نفسه، ثم إنها لن تأتي ببطن متورم تشير إليه بالخطيئة، في الحقيقة لا يعرف إن كان ما يفعله خطأ حقيقيًا أم أن الله لن يُحاسبه باعتبار أن الأمر لن يُؤدي إلى أذى حقيقي

لأحدهم، كيف لا يؤدي إلى أذى أحد؟ هو يُؤذي نفسه، وبالتالي سيُحاسب على ما يفعله، كانت سعاد مهيأة تمامًا وجيوش القلق تستبيح مساحاته مثل غزاة مسلحين، سعاد الآن تنتظر فعله كأنها آلةٌ حقيقيةٌ هو المتصرف الوحيد فيها، ضحك ثم نفض عقله واقترب منها، تراجع حين رأى الحسنة السوداء الجميلة على رقبتها، استعاد عقله مشهدًا في فيلم قديم لامرأة لها حسنة سوداء في رقبتها، وكان بطل الفيلم يُقبلها من فوق الحسنة مباشرة، المَشهدُ قديمٌ لكنه عالقٌ بذهنه؟ لا يعرف لكنه يعلم تمامًا أن الحلم لن يُغير في الشخصيات الحقيقية، ربما سيُضفي مزيدًا على شخصياتٍ لا يعرفها أو أن معرفته بها غير وطيدةٍ كالفنانات الأجنبيات اللواتي يحبهن مثل كاترين زيتا جونز وريتا هيوارث وإليزابيث تايلور، لكن بالنسبة لسعاد فهو يعرفها تمامًا، وبالتالي كل ما فيها حقيقي، نفض عقله مرةً أخرى وقبّلها فوق الحسنة السوداء مباشرةً، كان يتخيل أن الحسنة هي مركز الحس ومنه يتوزع إلى سائر الجسد، أحس بالالتصاق والرعشة تضربه من جديدٍ، مسامها موزعةً بشكلٍ يُشبه حمو النيل عند الأطفال، لانت سعاد تمامًا، لأول مرة يحس بكم الجمال الداخلي لجسدها، شعر بهذا جليًا حين خلعت قميصها، ثم مدَّت يدها وفكت سوتيانها ليتنفسَ نهداها البراح، ويحتلا زيادةً في الفراغ المُحيط، ويضرباه بقسوة جمالهما، كل جغرافيتها تظهر الآن باكتمالٍ حقيقي، هل سعاد هكذا فعلا أم أن عقله يجملها لأنه يحتاج إلى أن تكون جميلةً لإتمامِ الفعلِ الحميمي؟ لم يكن يُدرك شيئًا عن أجساد النساء، وحين رأى سعاد أدرك كل هذا دفعةً واحدةً، أدرك مدى روعة هذه الأرواح المُحملة بالجمال، وهي تجري في أجسامهن، عصر نهديْها بتحنانٍ وقبّلهما كثيرًا، أمسك أحدهما وراح يمصُّه مصًا، حتى إن هناك احمرارًا خفيفًا بدأ يتصاعد على ملامح الثدي الأبيض في موضع قبلته، انتقل بفمه وراح يرسم شفتيْه على كامل بدنها، وهي مهيأةٌ تمامًا كضرع بقرة لاقى الحنين من يدٍ مُدربةٍ، فعل اليد يجعل الضرع يمتلئ باللبن ويكبر في الحجم فيُشبه عجينًا رخوًا، تضغط اليد موجهةً الضرع نحو المكان المُحدد ليجري اللبن محملًا بالحياة نحو اللبانة أسفل الضرع، ثوانٍ وراح المشهد يتماوج والدولاب يهتز لينزل الضباب ويُحيط بالأشياء، أحس جويد بارتجاف جسده حين انفتح السقف وأطل العالم الخارجي بنورٍ غشى الأعين، أخذ يتنقل بين النور والسرير النحاسي، وفي النهاية انتبه إلى ذراع أمه وهي توقظه، هدأ قليلًا حتى ميَّز ملامح عالمه ثم فرك عينيْه وانتشى، كان لا يزال يعيش الحلم وسعاد تلعب في عقله، تمطى كثيرًا وضحك حين أحسَّ بالبلل في سرواله.

***

كان حُلمه يُؤرقه، نفس تفاصيل حُلم الأمس، وكان هذا الأمر مليئًا بالغرابة، حتى في أحلك لحظاتِ اليأس لم يُفكر حامد في قدميْن كاملتيْن، لم يُفكر برمي العكازين إلى آخر حدود الرؤية، كان كل حلمه أن يكبر وقدماه متوافقتان، ألا تترك القدم أختها، وتجري لتتطاول إلى الأعلى، وتنكمش الأخرى وتنثني وتضمر، كان لضمورها فعلٌ أليمٌ في نفسه، وتقوسها يُساوي أكبر من كلمة عجز، وهو غير القادر على الفعل، رنا إلى السماء ودعا الله أن يُفرج كربه، يذكر أنه دعا الله كثيرًا، على الرغم من يقينه بأن هذه الإعاقة سطرت قديمًا في سجل حياته، ولما كبر عرف أن الحياة كلها مجرد اختبارٍ نهايته الموت، وَقَرَ ذلك الأمر في نفسه مما جعله يتعايش؛ حقيقي أنه يتذبذب ما بين التشاؤم والتفاؤل، لكنه يتعايش، حتى شيخ المسجد قال له "يا حظك يا مشلول، لا تملك قدمًا تجري في معصية الله"، الشيخ نفسه أحال الأمر إلى سباق الناس نحو المعصية، دون أن ينظر إلى الأقدام التي تمشي باتجاه الله، كل شخصٍ في هذا العالم يرى الدنيا من منظوره، وبناءً على تجاربه، ذلك المنظور المتشائم لم يكن ليحتل فكرهُ الكلي حتى مع

إعاقته، على عكس الشيخ، كل رجال النجع يقولون له نفس الكلام، كأنهم يعتقدون أن كلامهم جسرٌ من صبرٍ يمشي عليه فيأمن، هم لن يعرفوا أنهم لو عاشوا الشلل ليومٍ واحدٍ فقط لغلفوا أقدامهم وخافوا عليها حتى من المشي....

حين تكرر ذلك الحلمُ عرف أنه ربما يكون رسالةً، لكن ما الغرضُ منها؟ كأن أحدهم يقول له كنت ستبقى هكذا، ما الغرض من أن يرى حلمًا بقدمين مكتملتيْن؟ وهو عارف تمامًا أن هذا مجرد حلم وسيبقى حلمًا أبديًا، ولا يمكن له أن يميل إلى جهة التحقق، الأمر في مجمله مقلقٌ، وحالة عجيبة مشت على جسده كتنميلٍ خفيفٍ وراحت تضم كل أجزاء الجسد لسيطرتها المتمكنة، حالة من قرف، عقله يروح ويجيء، ولا يعرف السبب من الأساس، وهو لم يعتد رمي الأمور وراء ظهره، كل شيء ينم عن غموضٍ لا يقدر على حله، لم يكن له إلا صاحبه، راح إلى بيت "جويد" ونادى على الأم التي خرجت وكلمته ثم ذهبت لإيقاظ الابن، دقائق وخرج بعدها "جويد" مكتمل الإرهاق، لم تبدو عليه راحة النائم، عيناه حمراوان سكنهما تعب، أفزع ذلك "حامد" فمد يده إلى كتف "جويد" وهزه برفقٍ:

- ماذا بك يا "جويد"؟

ابتسم جويد:

- لا شيء يا حامد.. فقط رأيتُ حلمًا مقلقًا..

زفر "حامد" بضيقٍ وثنى قدمه السليمة على المصطبة ودلدل العاجزة فوقها، نظر إلى الأعلى وابتسم بينما أردف "جويد" قائلًا:

- وأنت، ماذا بك يا حامد؟
- أنا أيضًا رأيتُ حلمًا مُقلقًا يا جويد، الحلم تكرر معي.. كأنه رسالة، كأن الحلم يريد أن يقول شيئًا، لكنني لا أعرف ما هي تلك الرسالة؟!

قصَّ حامد لجويد ما كان في الحلم، لكنه ذكر أشياءً لم يضعها جويد في الحلم، ربما حين نفخ في الوعاء لم يكن يُفكر جيدًا في حامد فقط، ربما اندسَّ شيء من تفكيره فخرج في الحلم لكي يراه حامد، لكنه حاول أن يستدرجه لكي يعرف ما الذي يُقلقه من تكرار الحلم.

- ما الذي رأيته في الحلم يا حامد؟

- المرة السابقة قلت لك إن هذا مجرد حلم، حقيقي كنتُ فرحًا لأنها حالة جديدة، لكنه كحلم لا يمكنني حتى الوثوق به، ولا يمكن تحقيقه أيضًا، ولكن تكراره أصابني كثيرًا بالدهشة، كيف يتكرر الحلم بنفس التفاصيل، وكيف أشعر أنني في حلم، هذا هو ما حيَّرني وجعلني أضربُ أخماسًا في أسداس، كان الأجدر بأن أحلم بشيء يصبرني على واقعي، يهيئني لكي أحتمل ما أنا فيه، يفكر لي في أساليب تجعلني أقاوم عجزي، بدلًا من الرحيل بي إلى دنيا خاليةٍ من العجز ومن الإعاقة، كنت أشعرُ بأن الحلم يُخرج لي لسانه كأنه يسخر مني...
- يا حامد هذا مجرد حلم، لماذا تأخذه على هذا المحمل، هل تعرف أن أحد الكتَّاب قال ذات مرة إن حلمه تكرر بنفس التفصيلة لمدة شهر، لا تأخذ الموضوع على عاتقك كأنه يُشكل أمرًا مهمًا، هو حلم والسلام.

وعلى الرغم من كلامه، لكنه أحسَّ فعلًا بأن كلام "حامد" صحيح، وأنه أخطأ حين وضع له حلمًا لا يُمكن تحقيقه، سينظر إليه "حامد" دومًا على أنه خيالٌ بعيدٌ وجامحٌ، كان من المفترض أن يُملي عليه حلمًا لأناسٍ لا يتحركون إطلاقًا، أن يجعل من حلمه ثيمة صبر لواقعه، أن يضفر من الحلم حبال أمل يربط

بها عقله، أن يجعله يلعب الكرة وهو مشلول، أن يجعله يستحم في النهر، ويجري بقوةٍ، ولا يقف عند حدود إعاقته، أن يجعله يستيقظ ويُجرب كل ما رآه، ويحاول الانتصار على ذاته وعلى الناس، أن ينظر إلى الدنيا بلون وردي متفتح وأن يشعر بقدرته على الاكتمال، ليس الاكتمال جسديًا ولكن الاكتمال ذاتيًّا ومعنويًا، سيبقى دائمًا وأبدًا رفيق العكاز، والأمر فرض نفسه، وجعل له مساحة مقبولة في داخله، فلماذا يُحاول إعادة الكرَّة، وإبراز هذا الأمر من جديد؟ أحس "جويد" بخطئه يتنامى في حقِ رفيقه، وبالتالي إن رواية كل ما حدث "لحامد" تنقص من إحساس الذنب لديه، لكنه لن يحكي له شيئًا، يعرف أنه في حقيقة الأمر لم يكن يعني ذلك الحلم الكثير لحامد، أقنعه أنه حلم عادي، وأن النظر له على أنه رؤيا هو في حد ذاته أمرٌ مرفوضٌ تمامًا، ربما لو منحه حلمًا عن "سعاد لبن" لكان مؤثرًا أكثر.

- هذا صحيح يا جويد. إنني أحمِّل الموضوع أكثر مما يحتمل، هو حلم، ولا بد أن أفكر فيه كأنه حلمٌ ليس إلا، حتى لو تكرر آلاف المرات.

كان تُريحه فعليًّا نظرة حامد إليه، تُريحه من تأنيب الضمير بداخله. سكت جويد كثيرًا ونظر إلى السماء وبعض الطيور التي تُحاول أن تتحد وتمشي في خط مستقيم فيبطئ الذي بالأمام ويُسرع الذي بالخلف ليبقى الكل داخل إطار السرب.

العُمْدَة

في الأيام التالية كان عليه أن يوقف تخيلاته، ركز على أن يبقى حلمه في النجع، سيد النجع، كان متيقنًا أنه بديلٌ معقولٌ للأدهم وللعمودية التي ليست من حق الأدهم، هو في الأساس ليس بعمدة، فقط نقوده هي التي سمحت له بلبس عباءة العمودية مجانًا، نقوده هي التي هيأت له مستقبلًا زاهيًا، والناس بايعوه، وكان حفل تنصيبه رهيبًا، كان يلبس العباءة السوداء المُطرزة بالخيوط الذهبية حول الياقة والأساور، يعتمر العمامة فوق رأسه بدوريْن علوييْن زيادةً عن رؤوس ناس النجع، يضع الشال الكشمير ماركة الجمل على كتفه ويمشي كمُهرٍ عفي بين الجموع، صوت الطبلة يدوي كهزيم رعد، اصطكاك الصاجات المعدنية له صدىً مُزعج، لكن

حين تتوافق مع الآلات الأخرى كالناي والطبلة فتمنح الناس لحنًا شجيًا، بعد ذلك بأيام أصبحت عصاه المالطي تدور في الهواء وتجري وراء الأرداف الممصوصة والمكتنزة، اتسعت رقعة الأراضي وكثر عدد الناس الذين يعملون باليومية والشهرية، كل رب أسرة يعمل لدى الأدهم كان يمنحه صك الاعتراف بقبوله كعمدة، حتى الحكومة آمنت بعموديته لنقوده التي تبعثرت عليهم، الآن من حق جويد أن يزحزح العمدة- الذي هو ليس بعمدة- وأن يجلس على عرشه، إن كان الأدهم امتلك العمودية بنقوده فإن جويد امتلكها بسطوته، أصبح الأدهم يعمل مثلهم كوضيع، حتى إن جويد كان يتفنن في ضربه على قفاه، كان يرى أن ضربه رد فعل طبيعي يُقابل الفعل الذي يقدمه وهو ضرب أبناء النجع، زعيق الأب في البيت كان تنفيسًا حقيقيًا لجروح الكرامة النازفة، وما باليد حيلة، الأدهم يُشكل معادلًا موضوعيًا بالنسبة لجويد، لم يكن هناك سبب محدد ليُعاقبه، وربما لن يكون، وربما سيخلق له سببًا ليُعاقبه أكثر، سيظل يعامله كعبدٍ قُطِعَ جسده من ورقة تاريخ قديمة، للأدهم الواقع وله الحُلم، ثم إن حلمه بالنسبة إليه واقعٌ أيضًا في حد ذاته.

أحيانًا كان يتساءل بينه وبين نفسه إن ظل يفعل ذلك فما الفرق بينه والأدهم؟ إذن لو أخذ مكان الأدهم واقعيًا لفعل مثله تمامًا، ستأخذه شهوة المال ويرتع تحت تأثيرها، سيضرب ويهين خلق الله، المال يمنح الإنسان غشاوة العين التي تجعله يُدرك أنه يتعامل مع أناسٍ من مستوى أقل، إن فكر بهذه الطريقة فربما يكون الأدهم أفضل حالًا منه، استغفر الله ونفضَ عن نفسه كل ترتيباته عن عقاب الأدهم.

***

في الحلم يُصبح كل شيء مألوفًا وعاديًا؛ في الحلم يتساوى أي شيء وكل شيء؛ تنهار الأعراف وتتساقط القيود ويصبح غير المُتاح متاحًا، يبقى العالم كله كالواقف في المضمار برهن الصوت؛ في الحلم أنت الملك لأنهم كلهم بواقع الأمر يسكنون فيك ويتحركون منك وإليك، ليست هناك حياة إلا التي تراها، وليست هناك أفعال إلا التي تلاحظها، كل الحيوات تتوقف حين تكون بعيدًا عن وعيك؛ حين سأل "سلمان" عن زواجه من "سعاد" كان ذلك السؤال لأنه يعرف أنه لم يفكر في يوم من الأيام "بسعاد" كزوجةٍ، بل إنه لا يذكر أنه رآها في أحلامه، أو حتى كان يتخيلها مثلهم، على عكسَ "سلمان" المتباهي دائمًا بأحلام هي ضيفته فيها، أولًا هي ليست من عائلته، ثانيًا عملها كراقصة لم يكن ليقبل به أحدٌ، وكان أبوه سيُحاربه علانيةً بين أبناء النجع، في الحلم تذوب كل الفوارق، كل المجتمع هنا نسيجٌ واحدٌ، ويحق له أن يفعل ما يراه جديرًا بعقليته، لماذا لا يتزوج "سعاد"؟ قالها وراق له الموضوع، من سيعرف أن "سعاد" زوجته؟ حتى هي نفسها لن تعرف، وكما تفعل الناس قرع باب بيتهم، فتحت وكأنها تعرف ما سيقول، لأن عقله هيأ لها المعرفة المُسبقة، قابل أباها، ودون الدخول في التفاصيل وافق الأب لأنه لا يملك الرفض من الأساس، وتم التجهيز للزفاف، كان بهيًا يتبختر في جلباب أبيض زبدة ناصع ويلبس تحته "الكالسون" المصنوع من القطن المصري، ويعتمر بعمامةٍ لها ذؤابة جميلة تُماثل ذؤابة شيخ الأحلام، "سعاد" تلبس الفستان الأبيض والطرحة البيضاء، أمسك أبوها بالميكروفون وغنى:

- "هات الغلاي.. وصب الشاي
اقعد يا أبو خاله اتحكى معاي"

وحين استأذنته سعاد في الرقص وافق، ربما وافق لأنه يعرف أن الرقص لن يراه أحدٌ غيره، على الرغم من أن الحاضرين كلهم يرونها، يعلم تمامًا أنهم مجرد أدوات في عقله، حتى "سعاد" والمسرح والغناء، كل شيء، إنه يشعر بأنه على طبيعته أما هم فممثلون بدرجة امتياز، ممثلون رغمًا عنهم، يلعبون أدوارًا لا يعرفونها، لكن يبقون بالنسبة إليه كومبارسات خلقها وعيه، رقصت "سعاد" وهزّت جسدًا لينًا

مطواعًا، حتى رقصها اختلف فأصبح أكثر قدرة كما يليق براقصةٍ وكما يليق بحلمه، كانت تملك منحنياتٍ رائعة يتمايلُ جسدها بتوافقٍ مدهشٍ، وعلى الرغم من محدودية الحركة التي منحها لها ثوبُ الزفاف، لكن رقصها جاء عظيمًا، متوافقًا مع حركات وتمايل الميكروفون في يد الأب، تنثني إلى الوراء وتلف جسدها في دورةٍ كاملةٍ محكومةٍ فتبرز التفاصيل وتتلاقى وتتباعد، وتقف تهز ردفيها اللدنين فيتمايلان في عين جويد الناظر بفرح....

- إن كنت تعوز نفسين جوزة

إحداي وشايلها للعوزة

واللي تشيله للعوزة

أهو ينفع في اليوم الجاي

هات الغلاي، وصب الشاي

اقعد يا أبو خاله اتحكى معاي".

"سعاد" الآن زوجته، قام ونزل من على الكوشة تُحاوطه نظراتُ الإعجاب التي انتزعها منهم رغمًا عنهم، أمسك بيد حبيبته وراحا يمشيان وسط صفين من بنات ينثرن الورد والفل والياسمين على رأسيهما، وشابيْن يلعبان بسيفين يتحركان أمامهما بخفة. الجوقة تعزف واللحن الخلاب يسري في الليل ممزوجًا بصوت أبو سعاد القوي، دار حول حمام السباحة فبدا شكلهما مرونقًا ومتوحدًا في المياه، يلتحمان وينفصلان بحسب تموجات المياه الخفيفة، فتحت أم جويد الباب فدخل وعروسه وأغلقت الباب خلفهما، بمجرد دخولهما ضربها على ردفها كما تعود، كان يستلذ بامتلاكها رغمًا عنها ورغمًا عن أبيه، ورغمًا عن النجع كله لقناعتهم بعدم جواز اختلاط الدماء بين أبناء العائلات، وكان يرفض ذلك الأمر تمامًا، يرفضه في حلمه، ويقبل به رغمًا عنه في واقعه باعتباره من المُسلمات، قال لها إنه يحبها، وهي أشاحت بوجهها في دلالٍ لتظهر حسنتها السوداء على عنقها، ضربها ضربًا خفيفًا على ردفها، شدها بتحنانٍ، مالت وانثنت كما كان يتخيل أن تفعل، في الحقيقة إن متعة "جويد" كانت متمثلة في أنه يشعر كلية بحلمه، حين سأله المأذون هل توافق على الزواج من "سعاد لبن" تردد قليلًا، هل سيعتبر زواجًا حقيقيًا، قال أوافق لأنه يملك حق الرفض، أي أن الخيار الآخر متاحٌ، لكن "سعاد" وافقت مرغمةً، بالنسبة إليه هو زواجٌ حقيقي استوفى شروط الزواج كالعقد والإشهار وكلٍ شيء، صحيح أنه عقدٌ غير موجودٍ لكنه كان يشعر أنه بالفعل في زواج حقيقي، صحيح أنها مرغمةٌ ولا تعرف من الأساس أنها تزوجت، لكنه يعرف أنها زوجته حتى لو أنكرت، وأنكر أبوه، وأنكر النجع بكامله، هم لا يعرفون أن أحلامهم لا تتشابه مع حلمه، وبالتالي فالذي جعله يشعر بقلقٍ واضح حين اقترب من "سعاد" أول مرة هو نفسه الذي ملأه ثقةً بأن "سعاد" زوجته على سنة الله ورسوله، زوجته في عالمه، وهذا يكفي لجعل الشرعية والحلال يغلفان اللحظات الحميمية القادمة، وهذا ما جعله فرحًا جدًا حين رفع فستانها، وقبّلها بنهم، تجاوبت سعاد معه كأنها توافقه على أنها زوجته، وبينما كانت تحتضنه كان "جويد" ينتقل إلى عوالم أخرى مليئةٍ بالمسرَّة.

مُحَاوَلة انتِحَارٍ

انطلقتْ صرخاتٌ قويةٌ عظيمةٌ مشبعةٌ بالفزع، كأنما هي لطمة شديدة القسوة تلقاها "جويد" على وجهه، انتفض نفضًا، الصرخة استلته- فجأة- من الحلم كسكينٍ من جراب، وقف مفزوعًا وجرى إلى خارج حجرته، وجد باب البيت مفتوحًا ودجاج الأم متكور في الأركان حول بعضه، كان الخلق يزاحمون بعضهم في الدخول لبيت "عبد الحق"، الرجال يقفون أمام باب الدار يُحاولون التطاول- فوق بعضهم- للنظر إلى الداخل، الحريم تلطم الوجوه بقسوةٍ ويُمزقن الملابس، ثوانٍ وخرج "عبد الحق" و"سعدية" مطروحة على كتفه، يدها متدلية تتطوح تحتها بسبب تمايله، يدها اليسرى مربوطة والدماء تُغطي الشاش الأبيض، الخلق كلهم هنا نساءً ورجالًا وأطفالاً، كانوا يركضون وراء "عبد الحق"، الحريم كن يتكومن أمام الدار ككتلةٍ واحدةٍ، سرعان ما تفرقت- الكتلة- إلى خيوطٍ تجري في اتجاهاتٍ مختلفةٍ، وأمه كانت تلطم خديها.

- **البنت "سعدية" حاولت الانتحار، دمها ينزف، وندعو الله ألا يحدث لها مكروه.. أين كان يختبئ لكِ هذا يا سعدية؟!**

لثوانٍ شعر بأن الدنيا تميد من تحت قدميْه، السماء انقضت على رأسه كطائر رخ عظيم الهيئة، النخيل البعيد العالي انقلب إلى الأسفل، والبيوت نفضت نفسها واعتلت بعضها بقسوةٍ، شعر بأيادٍ توقفه، أفاق من وقوعه، كل الناس كانت تجري في اتجاه المستشفى والذي سلكه "عبد الحق"، "جويد" دخل البيت وشرب ماءً ممزوجًا بالسكر، وجرى متقافزًا إلى الخور على عكس اتجاه الناس، كانت قدماه تعملان كآلةٍ للجري على المدق الترابي، يمد كُم جلبابه ليمسح العَرق الذي سال، هو السبب، حلمها، لماذا جعلها تحلم بالولد مرةً أخرى، لماذا فعل ما لا يتوجب فعله، لا يمكن أن تموت سعدية، سيوقف حلمها بأي شكلٍ، سيكسر لوحها، توقف قليلًا، ولهث حتى انتظمت أنفاسه وعاود الجري، ما شأنه وأحلام الناس؟ لماذا يُساعدهم وهو غير العارف بأمورهم، لماذا يزيد من وجعهم؟ وبأي حق استباح فكرهم ونومهم ليملأه بما يشاء، لماذا لم يقتصر على نفسه، في زحمة الجري بكى، توقف وسمح لدموعه بالخروج إلى البراح، لا يمكن أن تموت "سعدية"، لا يمكن أن يتصور أنه السبب في موتها، لن يُسامح نفسه أبدًا، سيمنحها لوحًا بلا أحلام، سيمنع عنها الأحلام نهائيًا، سيهاجر من النجع، سيجد له مأوى غير بيتهم الملتصق ببيتها، إنه يُحبها، نعم، يُحبها، ومساعدته لها في الحلم كانت عبارة عن محبة، صحيح أنه أخطأ التصرف، لكنه يُحبها، صحيح أنه ربما يتسبب في موتها، لكن ذلك من عطفه عليها، وشفقته الواضحة تجاه عقمها، وصل إلى مقام الشيخ "أمين"، كانت راياتها المخضبة بالحناء ترفرف بشكلٍ خفيفٍ، كأنما تُحاول استجداء هواء غير موجودٍ، تمامًا كسيدتها التي ستموت الآن، "يا رب أنقذْ سعدية"، قالها في نفسه ونشيجه يتعالى، حلف أنه لن يفعل ذلك مرةً أخرى، وردد "فقط خذ بيدها يا رب"، لا يهم إن كانت عقيمًا، كيف سيكون حال النجع من غير "سعدية"؟ سيحس في كل الجدران بفقدها، بسط يديه إلى السماء "يا رب أنت الرحيم، أنت المطلع على سرائر الناس، أنت المطلع على القلوب التي صنعتها يا رب، أنت الذي خلقتني خاطئًا، ولو لم أكن خطاءً لكنتُ ملكًا مقربًا يطوف الجنانِ بجناح نبع من رحمتك، يا رب لو لم تكن هناك خطيئة لما كانت هناك رحمة، ولما كان هناك دمعٌ يسيلُ، وعيونٌ تترقرق ترنو إلى عليائك، تلك الخطيئة هي في الحقيقة رباطٌ موصولٌ يستحث مغفرتك؛ أنا البشري سأخطئ يا رب، فالخطأ صفة وُضعت في ذاتي ليكون لمغفرتك وعفوك طعمٌ جميلٌ، تقبلني بخطئي يا رب، وافرد على جسدي ملاءة رحمتك، وامسح عني أدراني بمقدرتك، وقدرني يا رب على الوقوف تحت مظلة المغفور لهم".

كان دمعه يسح رغمًا عنه، وصل إلى الجبل فتقافز بقدر ما يسمح به تعبه الذي تشكل وظهر على أنفاسه، وقف على باب الكهف، أخذ يتنفس بعنفٍ، ولما هدأ كل شيء خطا إلى الداخل، ورآه.

الرُّجُوع

الخلق متكومون بكثرةٍ أمام المستشفى الصغير، النساء يلطمن وجوههن، والأطفال يدورون حول أحدهم الذي انتصف الدائرة، وآخرون ينتظرون تحت "اليافطة" التي كُتب عليها بخط كوفي "المستشفى العام".

من الداخل كان الدكتور يُغطي صدر "سعدية" بعد أن أزال سماعته الطبية، وكانت يدها ملفوفة برباط أبيض، وبجوارها حامل وعليه زجاجة "جلوكوز" متصل بها خرطوم صغير يصبُّ المحلول في "الكانيولا" المعلقة بساعد "سعدية" السليم.

- **اطمئن هي الآن بصحة جيدة، الجرح لم يكن كبيرًا، وريدها بخير، فقط مفاجأتها برؤية الدماء جعلتها تتصور الأمر بدرجةٍ أكبر من المعدل الحقيقي.**

كان الدكتور يوجه كلامه لـ"عبد الحق" الذي أطلق زفرة ارتياح، زفرة كانت تعني له عودة الحياة، نفث بزفرته كل ما يعتمل في نفسه، لم يكن يُصدق أنه يُحبها بهذا الشكل، فليذهب الأطفال إلى الجحيم، كان ينظر إليها ويُغالب دموعه، لأول مرة يشعر بأنه طفلٌ، ولأول مرة يحس بمرارة الفقد، ولأول مرة يعرف أنه مُخطئ إلى هذه الدرجة، حمد الله كثيرًا أنه لم يفقدها، "سعدية" كانت ولا تزال بنتًا عفيفة مليئة بالمحبة، وهو المقصر في حقها، كان متأكدًا أن العيب منها لأنه لا يصح به كرجلٍ أن يكون معيوبًا، لا يصح في عُرف النجع أن يكون عقيمًا، هكذا يقول المنطق، وهكذا يقول النجع، لكنّه الآن أحس بنفسه خاطئًا، وإن كان بها عيبٌ واحدٌ، فلقد أرته الآن كم العيوب التي يفيض بها، لقد تعرى الآن أمامها كمن انكشفتْ سوأته للناس، لقد هزمته "سعدية" وكادت أن تهزمه أكثر بموتها، موتها في حد ذاته كان انتصارًا لها وعقابًا له، موتها كان سيبقى حجرًا في طريقه يُسبب له الأزمة تلو الأخرى، "سعدية" كانت ستموت بسببه، كانت ستموت بسبب الضغط النفسي والعصبي الذي سبَّبه لها، يا تلك المسكينة الراقدة، لا هي ليست مسكينة، يا تلك العظيمة الراقدة، يا تلك الأم لـ"عبد الحق"، يا تلك الأخت لـ"عبد الحق"، يا تلك البنت لـ"عبد الحق"، يا تلك المرهفة والوديعة والمحبة، إنه خاطئ، نعم.. لن يستحيي، إنه

خاطئ، ومُقصر في حقها، وإن ضربته بنعليْها فلن يتكلم، وإن منحته بُصاق العالم فلن يتكلم، وإن منحته خراء العالم على وجهه فلن يتكلم، لماذا كان يُعاملها بهذه القسوة، وكيف كانت تحتمل المسكينة ولمن كانت تشكو؟ ولماذا وصل الأمر إلى هذا الحد؟ هو الذي جعلها تؤمن بما ترفض، هو الذي غيَّر قناعاتها تجاه كل شيء، محبتها له كانت تُغلف كل الأشياء بحسب رؤيته لها، هو الذي جعلها تذهب إلى الشيخ أمين، وتتقلب على حصره أملًا في الطفل، لم يُفكر يومًا لماذا تفعل كل هذا له، وهو لم يفكر في إسعادها يومًا؟ لم يدخل يومًا إلى البيت فرحًا، كان يضحك في شغله كثيرًا، وحين يقف على الباب يُعلق التكشيرة على ملامحه، دائمًا كان يصدها، دائمًا كان يتفنن في تفتيت فرحتها، كان يبتعد عنها أيام الخميس بحجة أن أرضها غير صالحةٍ لحرث حيواناته، كانت تتجمل ككل زوجةٍ تحبِ زوجها، تذهب إلى "سنية لبن"، تستسلم للسعات الحلاوة وهي تنزع الشَّعر من جسدها، وتأتيه ناعمة ملساء مصقولة، ولم يكن يُعجبه، يا إلهي كيف وصل به الأمر إلى حد غيبوبة؟ كيف عاملها على أنها مجرد مطية وأرض لإنبات الأطفال؟ النجع هو الذي صوَّر له كل تلك الأفعال، نظراتهم في عينيْه صباحًا ومساءً، سؤالهم له في كل يوم عن المولود المنتظر، تباهيهم بأطفالهم قدامه، حتى أخوه حين جاء ولده قال له "أعطه نقودًا وانظر إليه جيدًا عسى أن يكرمك الله بمن يُشبهه"، كان يصب كل معاناته بداخلها، وكانت تتقبلها سعيدة شاكرة، لم تتذمر يومًا، لم تشكه إلى أحدٍ، كان يشتري الحشيش، ويمنحه للهواء، ويُقصر في حقها، في الأكل والشرب و....

- أين أنا؟

فتحت عينيْها وراحتْ تدور برؤيةٍ مغبشةٍ في أنحاء الغرفة.

- أنا فين يا عبد الحق؟
- أنتِ مثل الورد يا سعدية.. حمدًا لله على سلامتك.

قالها الدكتور وهو يفرش ابتسامة عريضة على شفتيه، أما عبد الحق فقد صرخ حمدًا لله، كانت آهاتها استجابةً سريعةً لدعوات الناس بالخارج، دعوات شقَّت الغيم وتصاعدتْ إلى السماء بقوةٍ، وبعد أن حمد الله بلهفةٍ، أخذه الوجد كشيخ في ضيافة حضرة، استعطف الدكتور ليخرج لثوانٍ فخرج، بقي وحيدًا مع "سعدية"، كانت تنظر بعينيْن مغبشتيْن لكنهما قادرتان على تمييز زوجها، "عبد الحق" ركع على ركبتيْه أمامها:

- سامحيني يا "سعدية"، أنا لا أستحق أن أكون زوجك، لم أكن قاصدًا، والله لم أكن قاصدًا لأي شيء، كنتِ وستظلين الماعون الكبير الذي أفرغ فيه فرحتي وغضبي وحزني وألمي، سامحيني أنا المحتاج إليك وإلى روحك لتصلح المائل مني في هذا العالم.

مال "عبد الحق" ليُقبل رِجلها وجبهتها، أبعدت خرطوم "الجلوكوز" قليلًا وضمته بحنانٍ، وقالت:

- يا إلهي لو كنت أعرفُ أني سأسمع منك هذا الكلام لكنتُ جرحتُ نفسي منذ زمنٍ بعيدٍ، أنت حبيبي وابني يا "عبد الحق"، وستظل حبيبي وابني.

كانت عيناه لا تكادان تظهران من الدمع الذي سح وفاض على جلبابه، شهقاته تُشبه طفلًا بريئًا يعرف ما الذي يُعاقب من أجله، مال على يدها المغروزة بها "الكانيولا"، واحتضنها بقوةٍ، شالت رأسه ودفنته في صدرها، وهو الذي ارتج وبلل صدرها، وهي التي راحت تسقيه من محبتها، وهما اللذان ارتفع بكاؤهما إلى خارج الحجرة، حتى الواقفون تسلل الدمع إليهم، ورفعوا أيديهم للسماء القريبة وإلى الله القريب، وقالوا الحمد لله، الحمد لك يا رب على كل نعمك...

فُتِحَ الباب وطلع منه "عبد الحق" ونادى على الدكتور الواقف شابكًا يديْه أمام بطنه:

- تعال يا دكتور وفك الخرطوم عن يدها..

دخل الدكتور، وانتظر حتى سحب جسدها كل المحلول، تأكد من رباط يدها فأزال "الكانيولا"، أشار إلى "عبد الحق" الذي منحه النقود، واقترب من زوجته ومال يسارًا ورفع قدميْها، ومال يمينًا وحمل جسدها، وهي التي تعلقت بصدره، ومنحته نظرة حب كانت كفيلةً لأن يرفع رأسه إلى السماء ويحمد الله، مع كل خطوةٍ كانت تميلُ وتلتصق به أكثر، ومع كلِ خطوةٍ كان يطرد من رأسه فكرة فقدانها فيتوجه إلى الأعلى، إلى السماء، يعود بعدها إلى الأرض محملًا بالماء الوفير فيسكبه على صدرها المحتاج للمحبة، الأطفال من حولهما يتقافزون صارخين بفرحٍ والنسوة يُطلقن الزغاريد إلى الفضاء.

مُفَاجَأَةٌ قَاسِيَةٌ

كانت رؤيةُ الشيخ مفاجأةً قاسيةً لجويد، ارتبك قليلًا وتلعثم ونكس رأسه للأرض، لم يكن يتخيل أن يرى الشيخ مرةً أخرى، كان يعتقد أن الشيخ هو وسيلةٌ لغايةٍ هي معرفة تركيب الأحلام ليكون هو سيد الأحلام للنجع بديلًا عنه، لكن وجود الشيخ أربكه جدًا، إذن أين كان الشيخ في كل مرةٍ يأتي فيها جويد إلى الكهف؟ الشيخ بدا مرتاحًا تمامًا في وقفته، عاقدًا ساعديْه على صدره وناظرًا إلى جويد ويُحرك رأسه بطريقةٍ لائمةٍ، جويد رفع رأسه للشيخ وأدهشه أن يرى ابتسامةً مريرةً على شفتيْه، أشار الشيخ إلى الألواح:

- مَن الذي سمح لك باللعبِ في الألواح يا ولدي؟

لم يجد جويد كلماتٍ تُكوِّن جملًا مفهومةً يشرح بها عن نية صافية وحبٍّ كبيرٍ يحملهما للناس، كان يريد أن يقول له إنه يعرف آلام الآخرينَ، وأن صنع الأحلام للناس الموجوعة كان بديلًا عن الوجعِ، لكن جويد لم يتكلم والشيخ بدا عارفًا بما حدث، لذلك مصمص شفتيه في أسى ممزوجٍ بشفقةٍ كبيرةٍ.

- ما الذي فعلته بنفسك يا مسكين؟
- لم أكن أعلم أن سعدية ستحاول الانتحار.

ذهب الشيخ إلى لوح سعدية ثم نظر فيه قليلًا وعاد إلى جويد.

- سعديةُ لن تموت، سعدية لديها أحلامٌ أخرى ولوحها لم ينطفئ، أنا أكلمك على ما فعلته بنفسك.

- أعرف أن محتوى الوعي كان كبيرًا و.....
- ما الذي جعلك تستخدم الوعي الكامل، وما الذي جعلك تضع كل حبات الرمل، من الذي سمح لك بذلك؟
هزَّ جويد كتفيه ولم يجد كلماتٍ يرد بها على الشيخ، لكنه أحس بقلقٍ غامضٍ يسري في داخله.
- وما الذي يعنيه هذا يا شيخ؟
ابتسم الشيخ بمرارةٍ ونظر إلى جويد، وهزَّ رأسه إلى اليمين واليسار بأسى واضح.
- معناه أن ما وضعته ليس حلمًا، إنه واقعٌ آخر تحياه في زمنٍ آخر، كيف ستعيش في عالميْن يا ولدي؟ كيف يمكنك أن تحتمل حياتين؟
- وما المُتعب في هذا الأمر؟
حك الشيخ ذقنه بسبابته، وتابع:
- لماذا ينام الإنسان يا جويد؟
- ليُريح جسده وعقله تمامًا ويكون مستعدًا ليومٍ جديدٍ.

- الكل ينام لأن النوم راحة من عناء، النوم هو الموت الأصغر حيث يرتاح الجسد تمامًا ليركن عقله ووعيه ويريحهما، يقوم العقل لحظتها بتجديد نفسه تمامًا كغسيل الملابس، في أثناء يومك يقوم العقل بتخزين كل ما تراه، ثم تنام ليفرز العقل ما يهم وما لا يهم حسب تقييمه لكل شيء، وبالتالي هي ليست راحةً بالمعنى المفهوم، لكنك في المنام لا تقلق ولا يصيبك هم ولا تشعر بأي شيء من شأنه أن يُوتر العقل تمامًا، حين تنام أنت الآن فلن تُريح عقلك بل سيظل مشغولًا مفكرًا وهادرًا كماكينةٍ لا تهدأ، وسيشعر بكل ما يمر به في الحلم أيضًا، وهو حُلم يومي سرمدي وبالتالي لن يقيم العقل كل شيء لأنه في حالة عمل بأقصى طاقته، الكل له ذاكرة واحدة للتخزين، وكلما أردت تخزين شيء، فستنسى شيئًا قديمًا ليست له أهمية، فالعقل دائمًا ينظر إلى أولوياته، وما الذي يحتاجه، وما الذي لا يحتاجه لتتم عملية النسيان بسهولةٍ، أنت الآن ستخزن حياتين في ذاكرةٍ واحدةٍ، هل العقل قادرٌ على الفصل بينهما، لا يا ولدي، سيقوم العقل بتخزين كل شيء في مكانٍ واحدٍ، وبالتالي ستسقط واقعك على حلمك، وحلمك على واقعك، ستذكر أن فلانًا يحبك لكنه كان يحبك في الحلم، وهو يكرهك مثلًا في الواقع، فبأي طريقةٍ ستتعامل معه، أبحلمك أم بواقعك؟ وغالبًا ما ستنسى واقعك من حلمك، سيندمج الاثنان كحياتين لرجلٍ واحدٍ، هل فهمت؟ هذا شيء لن تستطيع لا أنت ولا أنا أن نوقفه.
- أيعني هذا أنني لن أستطيع إيقاف اللوح؟
كان كلام "جويد" جامدًا كأنه غير متخيلٍ ما يقوله الشيخ، وكأنه يتحدث إلى شخصٍ آخر.

- في الحقيقة لا يمكنني إيقاف اللوح، وقلت لك ذلك سابقًا، ولو كان يمكنني لأوقفته.. أنا لم أؤذيك لكنك آذيت نفسك، أنت لن تراني مجددًا، ولن تجد الكهف مرةً أخرى، سأغلقه فلا تجيء إلى هنا، حتى لو جئت فلن تعثر له على أثر، أنا لم أخطئ في حقك بقدر ما أخطأت أنت في حق نفسك، صدقني أنا لن أسمح لغيرك بدخول هذا الكهف مرة أخرى، كنت أول وآخر من دخل كهف الأحلام.
أشار الشيخ لـ"جويد" بالخروج، قام وخرج من الكهف.
ما الذي سيحدث لـ"جويد" مستقبلًا؟ كان جسده يرتعد بقوةٍ ومسامه تضخ الماء ضخًا، ويكاد يتهاوى

على الأحجار، كان القلقَ يأكل ملامحه ويُسيطر على كامل حواس جسده، طيبته الزائدة كانت سخطا عليه، كانت عقابًا وحبلًا يشده إلى نهايته دون أن يُدرك، مشى يجترُّ تعبه وألمه، لا يعرف ما الذي ينتظره، وهل صحيح كلام الشيخ عن العقل والتخزينٍ؟ إنه يشعر بأنه قادرٌ على الفصل بينهما، سيفصل بينهما قدر المستطاع، سيُحاول أن يبني حياةً واحدةً بنوم واحدٍ وواقعٍ واحدٍ فلا يتأثر عقله، ما هذه الورطة التي أوقع نفسه فيها؟ لماذا يشعر الآن بأن هناك حبلًا يُحاوط رقبته- كأنشوطة- بانتظار تضييقه؟ ربما ليس عليه أن يفكر كثيرًا، مشى حتى وصل إلى مقام الشيخ "أمين"، خطا إلى الداخل ورأى رايات "سعدية" المخضبة بالحناء والمغروسة بين الأحجار، هي لن تموت كما قال الشيخ وباستطاعتها تجاوز الحلم لأنه قال إن لديها أحلامًا أخرى، كان يتمنى أن يرى "سعدية" ويقول لها سامحيني على هذا الفعل، أنا من رمى لعقلك فكرة الانتحار، أنا أحد الأسباب التي ما استطعت التعامل معها، وكنت تودين الانتقال من الحياة تمامًا مهزومة لا تقدرين على المقاومة، مدد جسمه على حصر المقام الجديدة التي أحضرتها "سعدية" للشيخ، نظر إلى السماء وإلى الشمس التي تصب النور للناس ممزوجًا بحرارة محتملة، أغلق عينيْه، ورأى نفسه في حلمه زوجًا "لسعاد لبن"، وعمدةً على "الأدهم" وباقي النجع، فكر أن عليه أن يعتاد حلمه، وأن يفصل بين حياته وحلمه، نام قليلًا مع سعاد وتناوشا، ضربها على ردفها كعادته، صرخت من فرحة كان يفرشها على جسدها، كان يعرف أن هذه الفرحة مصطنعة، كل شيء كان ينبع فقط من داخله، لا يوجد موت ولا تعب، الحياة ينقصها الكثير في الحلم، كأن لم تعد للحلم تلك الفرحة التي كان يحبها ويُقبل عليها، النوم مع "سعاد" أصبح شيئًا تلقائيًا عبثيًا، مراقبة العمال كانت مملة، ضرب "الأدهم" نفسه على قفاه لا يشعر له بوقع انتصار في داخله، لذا ترك "الأدهم" وجعل له بيتًا ومسكنًا، لولا "الأدهم" لما وجد كثيرون من أهل النجع عملًا، ورش النجارة والحدادة والأعمال الأخرى تملأ النجع، لكن العاملين بها يحتاجون لأطفالٍ منذ نعومة أظفارهم حتى يتعلموا بسرعة، ناس النجع يحبون السهل مع المقابل الكبير.

قام من نومه وأحس بالبلل في سرواله مرة أخرى، نفض نفسه وخطا باتجاه النجع، كان اليأس قد بدأ يدب في أوصاله غير عارفٍ بما سيحدث، لكنه كان خائفًا مما سيحدث.

حَسَنَة سَوْدَاء

"جويد" كان جالسًا بجوار أمه، تحكي له عن بنت "عوضين"، التي تدورت وراح كل شيءٍ فيها يكبر تمهيدًا للتبلور في عيون الناسِ، ولِلتخمر في أفكارهم كزوجةٍ، كانت الأم تحكي وهي مندهشةٌ من فوران البنت غير العادي، تضرب كفًا بكف:

- بالأمس كانت طفلةً واليوم بلغت مبلغ البنات، وسقيفة بيتهم تستقبل كل أسبوع عريسًا جديدًا يود خطبتها.

الأم تقطفُ ورق الملوخية وترمي بالعصب إلى الدجاج المتقافز من حولها.

- الصراحة يا بني إنها تليقُ بك وتليقُ بها، تعرفُ العجين والخبيز، وتعرفُ فنون الكلام وكيف تتعامل مع الناس، والحقيقة هي نظيفة جدًا، وبيتهم مضرب المثل في النظافة، ثم إنها تحبني جدًّا وأنا أحبها.

زواجه من سعاد كان زواجًا هيَّأه له عقله في حلمه، وبالتالي لا تحكمه عاداتُ الناس، لكن بالنسبة للواقع فلا يقدر على الزواج من "سعاد" ولا غير "سعاد"، ليس قبل أن يجد عملًا يُناسبه، وربما في الأخير سيضطر للعمل عند الأدهم، كل شيء في تلك المرحلة سابقٌ لأوانه، ثم إنه لا يوجد شيء مُقلق بالمرة، إنه يملك وسيلة التفريغ كأنه متزوجٌ تمامًا، على العكس، إنه لا يُفاجأ بيوم توقفه "سعاد" بأن عليها "الدورة" عندما يكون هو مُهيأ تمامًا للفعل، دائمًا يراها جاهزةً ومهيأةً كأحلى ما تكون، حين تمر أمامه في النجع كان ينظر إلى من ينظرون إليها ويُمصمصون شفاههم بتحسر، يكاد أن يذهبَ إليهم ويقول لهم إنها زوجته على سنة الله ورسوله، لكن كيف يقنعها أولًا؟ كيف يُخبرها بأنها زوجته وأن من حقه امتلاكها؟ كيف يقول لها إنه يعرفها؟ والدليل تلك الحسنة السوداء في رقبتها، في كل مرة كان يُقبل تلك الحَسنة، وكان يرى فيها موزعًا لأحاسيسِ "سعاد" على سائر الجسد، من الحَسنة يبدأ الفوران، من الحَسنة تميلُ "سعاد"، وتقبل عليه ضاحكةً ومرتعشةً، كانت تعرف متى تضحك، ومتى تمزج الآهة بضحكتها بغنجٍ، ومتى تغلفها برنة دلال، ومتى.....

الطَّرَقاتُ على الباب انتزعته من أفكاره ليُفاجأ "بحامد" الذي أخبره بأن "الأدهم" جنَّ جنونه كالعادة، وأنه يضرب العمال، جرى "جويد" كباقي النجع ليُشاهد، من خلف السور الكبير كان "الأدهم" يمسك بالعصا "المالطي" ويضرب العمال الذين يضحكون ويجرون، يضحكون لأنهم يعرفون أن "الأدهم" يروح عقله في بعض الأحيان، لكن الكبار منهم كانوا يأخذون الأمر على غير محمل الجنون، رأى "جويد" العصا "المالطي" وهي تنزل على أبيه حمدان الذي كان يصرخ، العمدة كان ينظر إلى الناس بعينيْن حمراويْن مدججتيْن بالجنون، العمال سحبوا "أبا جويد" بعيدًا عن العمدة، حمدان لم يهمه وجود الناس، ارتكن إلى جدار، ودفن رأسه بين كفيه، العمدة صرخ وزاد هيجانًا، أخذ يضرب باقي العمال، الكبير منهم والصغير، ولا يقدر أحد أن يوقفه، فشل "جويد" كباقي الناس في الدخول إلى الفيلا عبر السياج الحديدي، أمسك الخفر بالعمدة أخيرًا، كان يصرخ ويسبُّ الأشكال الوسخة التي لا تستحق الصدقةَ، وكعادته سيطرد العمال، وسيرجعون في الغد، حتى انتهى الأمر بسبابٍ عنيفٍ أطلقه في وجه كل من يقف أمامه حتى الخفر، "جويد" لم يذهب إلى البيت، كيف يتحاشى النظَر في عينيْ أبيه؟ كان يشعر كأن له يدًا فيما حدث، من المفترض أن تكون الكتف البديلة الذي يتكئ عليه أبوه في حالة التعب، يعرف أنه مخلوقٌ خصيصًا لتكون هذه الكتف، ليكون المعين لأبيه في لحظات الضعف والشيخوخة، "جويد" كان يُفكر في نفسه فقط، ما الذي يفعله؟ لم يعتد أن يعمل في الأرض، ولا يعرف احتياجاتها من ري وبذر وحرث وخلافه، ينتظر يومًا يعمل فيه بوظيفته.

اتجه جويد إلى المقهى، رأى سلمان جالسًا بين الشباب كعادته، لم تعد حكايات سلمان تروق لجويد، بل إنه يتضايق فعلًا حين تأتي سيرة سعاد على لسانه، كاد أن يمسك بتلابيب جلبابه، وأن يقول له إنها زوجته، لكنه ما استطاع، كان "سلمان" يخوض في سيرتها، يُقلبها على ردفها وبطنها، ويرفع رجليْها، يسرد كل الأوضاع، و"جويد" يعضُ شفته بقوةٍ حتى يكاد أن يقطعها، حتى إنه قال لـ"سلمان": "ألا تمل من الكلام عن سعاد...؟"، نظرات الناس أثارت انتباه "جويد"، وتساءلت لماذا في هذا الوقت بالذات يقول هذا؟ وهو الذي كان يضحك حين تأتي سيرتها معجونةً بصوت "سلمان"، لماذا يطلب منه أن يُغير الموضوع، وهم الذين اعتادوا هذا الأمر الذي يمنحهم الضحك، ولأن "سعاد" ليس لديها إخوة أولاد، ولأن أباها لا يجلس معهم على مقهى "البلم"، فإن سيرتها كانت ضيفًا يوميًّا، ولم يقلق أحدٌ من هذا الأمر، فلماذا يقول "جويد" مثل هذا الكلام الآن، أحس أن في الأمر تساؤلًا...

- لقد أخذت "سعاد" أكثر من حقها، كل يوم "سعاد"، "سعاد".

ضحكاتٌ خاطفةٌ خرجتْ من أفواههم، كشفتْ لهم أن الأمر لا يتعدى الملل من حكايات "سلمان".

- دعك من "جويد" وأكمل لنا الحكاية يا "سلمان"!

قالها أغلبهم ضاحكين، فقام "جويد"، وتوجَّه إلى البيت، صلى فروضه ثم دخل إلى حجرة نومه مباشرةً، كانت الأم تعرف أن هذا فعلٌ غير طبيعي، "جويد" لا ينام في مثل هذا الوقت، رفعت الأغطية من عليه، ورأته والدمع يترقرق في عينيْه، لم تشأ أن تُكلمه، ربتتْ على كتفه قليلًا، قبَّلته على جبهته وتركته، غطته مرةً أخرى، "جويد" يحلق في السقف، وراح يستدعي النوم، سيقتل العمدة في حلمه، كانت غلطة "جويد" أنه عامل "الأدهم" كإنسان، سيقتله في حلمه، ولن يكون هناك مكانٌ له في وعيه، كان يحلق في السقف من بين ثقوب الناموسيةِ البيضاء، قشور السقف اتسعت، والجير ترك مكانه في كثيرٍ من الأنحاء لتظهر فلوق النخل التي صُفَّ عليها الجريد "المدملك" بالطين، الطبقة الطينية نفسها راحت تتراجع، والجريد بان في أغلب المناطق، وخفيفًا خفيفًا راح السقف ينزل إلى الأسفل، وساد الظلام...

وجاء النور دفعةً واحدةً، كان "الأدهم" واقفًا كأنما ينتظر عقابًا، وكأن لديه العلم بما حدث، وكأنه مقتنعٌ تمامًا بأنه أخطأ ويستلزم العقاب، بسمة ساخرة كانت مرسومةً بدقةٍ على وجه "الأدهم"، أمسك "جويد" بسكينٍ كبيرةٍ، واقترب من "الأدهم"، والأب واقفٌ خلف "جويد" دون أن يتكلم، النجع كله كان موجودًا وشاهدًا، كثيرٌ من أهل النجع كانوا يُمسكون بالسكاكين والفؤوس و"المناجل"، كأن القهر وحَّدَهم جميعًا على قتل "الأدهم"، كان سيرفع سكينه ويُنهي الأمر، لكنه وجد الناس جميعًا يُحاوطون "الأدهم"، وكل من يُمسك بآلةٍ حادةٍ جعل مسكنها في جسد الأدهم، قطعوه قطعًا صغيرةً أكبرها لا يزن رطلًا واحدًا، كل واحد فيهم استوفى نصيبه من الانتقام نتيجة القهر والذل وجروح الكرامات، ارتاحت صدورهم تمامًا وهمدتْ انفعالاتهم، مشى "جويد" منتشيًا بفعل الانتصار الكبير، لكنه أحس بحركةٍ وراءه، التفت فوجد "الأدهم" لا يزال متجسدًا، ضحك "الأدهم" وانبهر "جويد"، لماذا لم يمت "الأدهم"؟! أهو عصي على الموت؟! وقف "الأدهم" وأشار إلى "جويد":

- أنا لن أموت، لأنني ما زلت حيًّا في وعيك، حتى أنت ترفض موتي، إنه ليس موتًا حقيقيًّا، وعقلك لن يقبل بموتي في الحلم دون أن أموت في الواقع، وحين أموت في الواقع، ربما أسقط ميتًا في حلمك، عقلك لا يقبل بانتقاص الأشياء، لا يمكن أن تملك والدًا غير والدك، عقلك سيرفض، كما سيرفض في الواقع، وإن وعيك في الحلم هو جزء من وعيك في الواقع، يمكنك أن تضربني كما تشاء، لكنك لن تقدر على قتلي، يمكنك أن تجلدني ألف مرة، لكن هذا الأمر سيضيع وسط صرخات والدك حين يجري من أمامي كالخروف، مثله مثل باقي القطيع في

النجع، كل هذا النجع ملكي، حتى في حلمك لن تستطيع أن تجعلني أقول لك يا سيدي، لأنك تؤمن بداخلك أني سيدك.

اهتز جويد قليلًا وأشار بإصبعه علامة النفي..

- لا، أنت لست سيدي، أنت في عقلي، وعقلي هو الذي جعلك تتكلم بهذا الشكل، في الأساس عقلي هو مَن يتعارك مع بعضه البعض، وأنت جزءٌ من عقلي الذي يُريد هزيمتي.

ضحك الأدهم ضحكةً كبيرةً خبيثةً ردد صداها الجبال، وراحت ترن وترن في البعيد:

- أنا في وعيك الآن، وفي وعيك ما زلت سيدًا، وقوفي أمامك بهذا المكان يجعلني سيدًا لن تقدر على هزيمته، أرأيت بماذا دعت لك أمك اليوم؟ دعت لك أن تعمل لديَّ، أن تنضم لقائمة العبيد الذين يجرون أمام ضربات العصا "المالطي"، وهذا آخر ما يُمكنك أن تطمح به، أنا سيدك في حلمك وواقعك، ألم ترني أتجسد بعدما قطعوني بفؤوسهم دون صرخة ألم واحدةٍ؟ حتى سكينك التي انغرزت بداخلي خرج وهو يحمل لك الهزيمة المجانية، لا تُحاول أن تصَنع حلمًا أموت فيه، فحتى الحلم أستطيع أنا هزيمته، ها هاهاهاهاهاها.

ترددت ضحكاته، وراحت تطن في عقل "جويد" الذي أحس بأن العالم يميد به، أمسك رأسه بكلتا يديْه، ووقع على الأرض، كان الطنين لا يزال يدق في رأسه بعنفٍ، لم يشعر بهذا الألم- غير المحتمل- من قبل، كيف يهزمه "الأدهم" في حلمه، بل كيف تجرأ، ورد عليه بهذا الشكل، المفترض أنه يعيش في وعيه لا في وعي "الأدهم"، الدنيا تدورُ بسرعةٍ من حوله، الألوان تزدادُ وتختلط مع بعضها بقوةٍ، "جويد" يدور مع الأشياء، يُمسك برأسه ويصرخ، يشعر بأن رأسه سينفجر، يصرخ ويصرخ، أحس بجسده يروحُ ويجيء مثل بندول ساعة، يصرخ ويترنح، يفقد اتزانه، يصرخ أكثر ويترنح أكثر وأكثر...

- "جويد"... "جويييييييييييد"..

وقف بحركةٍ حادةٍ فجاوبته الأم باحتضانها له بشكلٍ عفوي، لفته بالكامل في حضنها:

- ولدي.. ولدي.. ماذا بك يا بني؟ لمَ تصرخ بهذا الشكل؟ فطرت قلبي عليك يا ولدي.

طرقاتٌ قويةٌ تقرع بابَ بيتهم، "جويد" يُحاول الرجوع من الحلم الذي كان لا يزال مُسيطرًا عليه، كيف سمح لنفسه أن يفعلَ بنفسه ما فعل، وعي آخر هو الذي سيطر على وعيه، لم يكن من المفترض أن يحدث هذا، المفترض أنه هو الذي يُدير الحلم، لا أن يقف العقل أمام رغباته، كانت الأم تسند كوب الماءٍ على حرف السرير، وتشعل الأعواد، وترميها في الكوب، وبعد أربعة أعواد، ناولته الكوب، فشربه دفعةً واحدةً، كان يعلم أنه لو قال لها إن طقوس "الخضة" هذه خرافة ستلطم، وتلم الناس عليه، فآثر الشرب، دخلت "سعدية" وزوجها "عبد الحق" وبضعة أناس شدهم الصراخ.

- ألف لا بأس يا خالة.. ماذا به؟

قالتها "سعدية"، فابتسم "جويد" ولوَّح بيديْه، وقال:

- لقد رأيتُ كابوسًا فقط..

وقال إنه بخير، وشكرهم على حسن صنيعهم ومجيئهم للاطمئنانِ عليه، قالت "سعدية" إن الناس ليس لهم إلا بعضهم، وأن المؤمن دائمًا مُصاب، سحب سروالًا نظيفًا، وفوطة تجفيف، ودخل الحمَّام، راح يدلق المياه على جسده، المياه الباردة نزلت على جسد "جويد" فأرعدته، يحس بأنه وجسده لهما طباعٌ مختلفةٌ، أوقف "الكوز" فوق رأسه عندما وصل تفكيره إلى تلك النقطة، حتى عقله كان الثالث في الاختلاف معهما، العقل كان كارهًا لفكرة قتل "الأدهم"، وبالتالي صوَّر له أنه لا يُمكن موته، العقل بكامل

عنفوانه يُحارب جزءًا من عقله المتمثل في حلمه، العقل يريد أن يُسيطر على كامل العقل لأنه يشعر بأن جزءًا منه غاب، كونه يعيش في الحلم بعقلٍ كاملٍ، وفي الواقع بعقلٍ كاملٍ، هذا يعني أن له عقلين داخل واحدٍ، ربما أدرك عقله هذه المسألة، وعرف أنه إن تشتت فربما سيكون الجنون حتميًا، إذن فهو يُحاول السيطرة على الأجزاء المنفلتة منه، يُحاول أن يكون نسيجًا واحدًا في الواقع والحلم، هذا يعني أن عدم موت "الأدهم" كان عبارةً عن العقل المضاد أو الجزء الأكبر من العقل، أما تفكيره هو فكان يُمثل الجزء الأصغر، إن انتصار "الأدهم" وعودته من الموت، كان يعني انتصار العقل الكلي على حلم "جويد"، والذي هو جزءٌ من وعي العقل، فرح "جويد" فعقله يتّحد مع جسده ضد جزءٍ من عقله المتمثل بوعيه في الحلم، يُحاول أن يحمي نفسه، مثل الصَّدَفَة التي تضعها السلحفاة على جسدها، ربما لو قتل "الأدهم"، لكان قد أصابه انهيارٌ عقلي، وإلا كيف يُقنع نفسه بأنه حي في الواقع وهو ميت في الحلم؟ أكمل استحمامه، وخرج وقد أراحه استنتاجه، سيترك نفسه للعقل الكلي، سيتحرك بناءً عليه، وما سيسطره له في الحلم، لن يجتهد في صنع الأحداث، سيتركها له كيفما يشاء فهو الأفضل في التصرف، ويوجد أيضًا عاملٌ مهم، وهو التجديد في الحلم حتى لا يكره الحلم، وسيقوم عقله بهذا الدور أيضًا.

سُعَاد لبن

كانت الشمس قد دخلت إلى مبيتها، وبدأت البيوتُ في شفط الناس إلى أحضانها، وبدت الشوارعُ خاليةً إلا من البعض، "جويد" كان ذاهبًا إلى مقهى "البلم"، "حامد" أيضًا كان هناك، و"سلمان" يحكي عن "سعاد لبن"، نفخ "جويد" بضيقٍ وعصبيةٍ غير مبررةٍ، كان يود لو أن "سلمان" غيَّر اتجاه الكلام، لكن ما الذي يُمكن أن يقوله لـ"سلمان"؟ ولماذا يشعر بأن الموضوع شخصي وهي ليست زوجته في الواقع؟ وما التغيير الذي طرأ حتى يمنع "سلمان" من الكلام عنها؟ سحب "حامد" من يده، حمل كرسيًا ورجع ليأخذ كرسيًا آخر، جلس مع "حامد" في ركنٍ بعيدٍ عن كلام "سلمان"، لكنه كان يصلهما حرفيًا،

هما غير مضطرين للمشاركة سواء بضحكةٍ أو باهتمام، كان "سلمان" يتخيل وهو يحكي، في الحقيقة لم تُعاود "سعاد" الظهور في حلمه، البعض كان يلاحظ قرصته على شفته السفلى بلذةٍ بعد ذكره اسمها، جاء "البلم" بالشاي الساخن والبخار يتصاعد منه في خيوطٍ تتلوى متصاعدةً لتتوحد مع الفراغ، ترك الشاي وهو ينظر إلى البعيد، كانت "سعاد" بشحمها ولحمها تظهر قادمةً في النور الذي رمته الأعمدة على جسم الطريق، توقفت الملعقة عن التقليب في كوب الشاي، "جويد" رأى حاشية "سلمان" تتفرق من حوله، الصمت يمشي ليخطف الكل إلى واحته القريبة..

- ألم ترَ أختي "سنية" يا "جويد"؟

قالتها "سعاد" فحرَّك "جويد" رأسه بالنفي:

- لا لم تمر من هنا.

حتى "البلم" نفسه أشار نفيًا، كانِ "سلمان" لا يزال يتخيل "سعاد" في حكايته التي ما أنهاها، كانت حكايته عن "سعاد" قد منحته تخيلًا حقيقيًا لا يزال يعيش معه، كان يحسه بقوةٍ، قام سلمان وتقدم منها في صمتٍ، كان يردد بينه وبين نفسه "أيعني هذا أن رجب أشجع مني؟" كانت حركته بطيئة، تحاول إخفاء عضوه المُنتصب، وصل إليها، وكانت لحظةً ثقيلةً على الكل، "سلمان" قال لـ"سعاد" إن أختها مشت بهذا الاتجاه.

قالها وأشار إلى الاتجاه المقابل ليسمح ليده أن ترتطم بصدرها برفقٍ، وكأنها حركةٌ غير مقصودةٍ، لكنه ما استطاع المقاومة، فمدَّ يده وأمسك بصدرها، حاول عصْره، البنتُ صرخت و"سلمان" يمد يده إلى الصدر النافر بكلتا يديْه، الصورة جاهزة في عقل "سلمان"، وما عرف كيف حاول احتضانها، صرخة "سعاد" انقسمت إلى عدة صرخاتٍ ضعيفةٍ، لم تقدر على صد الجسد الهائج، لكنها أحست بـ"سلمان" يُفلتها فجأة، ويده تترك السوتيان، ارتفع "سلمان" وارتمى إلى أحد الأركان فارتطم وجهه بالأرض، سالت منه الدماء وامتلأ فمه بالتراب، كان سلمان لا يزال يلهج، لكن رؤية الدم أعادت إليه توازنه المفقود، الأنفاس تتسارعُ في جسده، كان "جويد" واقفًا بجوار "سعاد"، "سلمان" بصق الدم المخلوط بالتراب، مر بكم جلبابه على فمه وقال "لجويد":

- اطلع من الموضوع يا جويد.. أنا سآخذ نصيبي من "الأدهم"، اطلع أنت فقط من الموضوع..

"البلم" وحامد ونجيب وعلي وقرقار وقفوا أمام "سلمان" وبصقوا عليه..

- أنت حقير..
- أنت سافلٌ فعلًا..
- أمامنا.. تود معاشرتها أمامنا..
- ألسنا رجالًا بنظرك يا ابن الكلب..
- إن لم تستحِ فافعل ما شئت..
- أنت أكثر مَن مجرد قذر..

سلمان كان أجبن من أن يتكلم في تلك اللحظة، البنت أمسكت بظهر "جويد" و"البلم" أشار لـ"جويد"، الذي رافق "سعاد" حتى سحبتهم الظلمة إلى بطنها الوسيع.

بِدَايَة وَهْمٍ

كان جالسًا في حجرة الضيوف، الحجرة بها ثلاث كنبات، وعلى الأرض كانت هناك "مرتبة" مفروشة وعليها "بطانية"، كأن أحدهم قد قام توًّا من النوم وما فكر في طيِّها، دخلت "سنية" أخت "سعاد" وهي تحمل في يديْها صينية الشاي المخلوط بالنعناع الفواح..

- أين كنتِ يا "سنية" وأختكِ تجوبُ النجع بحثًا عنكِ؟
- زواج "مريم بنت حسونة" اقترب يا جويد، وكنت عندهم في البيت تستشيرني في أغراضها، وأنا قلتُ لـ"سعاد" إني ذاهبة إلى هناك، ويبدو أنها لم تسمعني.

مشتْ "سنية"، ولاحظ "جويد" أن النور موزعٌ على أنحاء الغرفة بالتساوي، وسبب هذا كان تساوي حجم الجدران الأربعة، وأيضًا مجيءِ اللمبة الصفراء "القلاووظ" في المنتصف تمامًا، دخلت "سعاد" إلى الحجرة، كانت تلبس جلبابًا ضيقًا يعصر جسدها فيُظهر كل معالمه، كان يحد من حركتها ويبرز ثدييْها وخصرها وردفيْها فيُعطي كل ذي حق حقه في الجمال، كان مفتوحًا من أعلى فظهر مفرق الثدييْن غائرًا وعميقًا، الثديان مدوران متكومان بفعل الضيق الذي فرضه سوتيانها الأسود الذي بدا واضحًا من خلف الجلباب الشفيف، جلست بجواره على الكنبة، وأمسكت بالشاي، وقلبته ثم رفعته بيدها إليه، مال بسرعة، وأمسك منها الكوب، النعناع كان مبهجًا..

- أنا أشكرك لوقوفك بجواري، وأنا مقدرة لأفعالك يا "جويد".

كاد يقول لها أنت زوجتي، ولكنك لا تعلمين، وحتى إن كنت لا تعلمين ذلك فأنت مسؤولة مني، ولا يقدر أحدٌ في الكون على سرقتك، نظر إليها مبعوثًا بمحبةٍ وطدها حلمه بها، كان يعرفها ويعرف كل تصرفاتها، تلك التي استنبطها عقله في الحوارات التي كان يُجريها معها في الأحلام، لكنه تذكر أن ما تفعله هو بالضرورة تخيل وليس الواقع، هي تفعل ما يراه هو، بغض النظر عن رؤيتها للموضوع فكل شيء خاص بوعيه، ووعيه فقط.

- هذا واجبٌ على كل شاب بالنجع يا "سعاد".. وأنا لم أفعل إلا ما يتوجب فعله.

سند كوب الشاي فقامت وأمسكت "بالبطانية" المُلقاة على الأرض، أصبح ردفها بمواجهة "جويد"، حتى في حلمه كانت تستدير، وتُريه عَظمة جمالها وبهائها ورونقها، كل شيء فيها ينضح بالقدرة الإلهية على الإبداع، "سلمان" له الحق فيما فعل، "سلمان" معذورٌ في هجومه عليها، أغمض عينيْه وتخيَّل ردفها الجميل في عُريه أمامه، فتح عينيْه وبغير قصدٍ مدَّ "جويد" يده وضربها على ردفها مثلما يفعل في حلمه، نظرتْ إليه وضحكتْ، خبط جبهته بيده بعد تذكره أنه ليس في حلمه، إنه الآن في الواقعِ، أحاطتْ رقبته بيديْها، ولفحته بأنفاسٍ ملتهبةٍ، بلع ريقه بصعوبةٍ، إنه ليس في حُلم، تسارعتْ ضرباتُ قلبه، وكأنه سيترك الجسد ويخرج، الواقع أصعب مما تخيل، خاصة حين لا يقدرُ على توقع حركتها القادمة، قربت شفتيها ولثمت وجنته، راحت شفتاها تتحسسان طريقهما كعمياء إلى شفتيه مدفوعتين بلهب الأنفاس، وقبل أن يلتفت وجهه بالكامل إليها، لمح عنقها، بحث عن الحَسنة السوداء فلم يجدها، كانت هنا تلك الحسنة السوداء، أين هي الآن؟ ابتعد إلى الوراء بحركةٍ حادةٍ أفزعت "سعاد"، رجعتْ إلى الخلف، وقف مفزوعًا كأنما مسَّه شيطان، أمسك برأسها ومال يبحث عن الحسنة السوداء، لم يكن في رقبة سعاد أي حسنة سوداء، أين هي؟ لم يتكلم "جويد"، فقطٍ أمسك بكوب الشاي المخلوط بالنعناع ورماه بعنفٍ إلى الجدار، انكسر الكوب، "سعاد" وقفتْ مبهوتةً لا تعرف ماذا حدث، "جويد" تمالك نفسه، وجرى إلى الباب ومنه إلى الشارع، ولم ينظر حتى إلى "سعاد" التي خرجتْ من حجرة الجلوس تنظر إليه، وتود سؤاله عما حدث، كل شيء غاب بنظره، كان يعلم أن كل شيء حَلم به وهمٌ؟ يعي تمامًا

أنه في حلم، لكنه لم يكن يُدرك أن الحلم يمده بالتفاصيل التي يُحبها فقط، بغض النظر عن الحقائق، "سعاد" ليست هي "سعاد"، والحسنة التي تُميز عنقها غير موجودةٍ، وليست هي التي تزوجها؟ "سعاد" هذه لم تكن زوجته، لكنِ التي في الحلم كانت زوجته، من المفترض أنه كان يحلم بـ"سعاد" لا بشبيهة "سعاد"، كان مغتاظًا جدًا من أن يكون كل شيء مجرد وهم، حتى "سعاد" مجرد خيالٍ، العمدة لم يكن العمدة، "سعاد" لم تكن "سعاد"، هو في الأساس من منح حُلمين لـ"سعدية" و"حامد"، لكن شخصية "حامد" و"سعدية" في الحلم كانتا حقيقيتين، فلمَ الآن يُفاجأ بأن الشخصيات في حلمه غير حقيقيةٍ بالكامل؟ سؤال ألح عليه كثيرًا، ولم يجد له جوابًا.

***

أَحْلَامٌ تُنَاسِبُ رَجُلًا وَاحِدًا

في حُلمه جاءت "سعاد" زوجته ككل مرةٍ، وحين اقترب منها، وكشف عنقها لم يجد الحسنة السوداء، ضحك بقوةٍ، وهو يضرب كفًا بكف، إذن الموضوع كان إسقاطًا منه، العقل يعلم تمامًا أنه يُحب الحسنة السوداء التي كانت للبنت في مشهد الفيلم الذي يُحبه، العقل هو من صنع تلك الحَسنة على عُنق "سعاد"، هي من اختراعه، "حامد" سيأتيه مشلولًا في الحُلم، ربما تكون قدمه اليمنى مشلولة، وربما تكون اليسرى، لا يهم أيًا منهما، لكن الحلم يهتم فقط بواقعة الشلل، الحلم يحب التعامل معه باعتباره معرفته الخاصة، "سعاد" هي تلك الموجودة في أعماقه، وليست "سعاد" التي يراها النجع، تمامًا مثل العمدة، هكذا يرضخ وعيه في الحلم لعقله في الواقع، لذلك فإن وقوف العمدة أمامه، كان لقناعته أن العمدة لا يمكن أن يموت، وإلا تشرد الكثيرون، ومع أن الحلم يحتوي بعض الإضافات غير الموجودة في الواقع، إلا أنه يُحاول قدر الإمكان أن ينسجم مع عقل "جويد"، ويدور في فلك قناعاته، هنا ارتاح "جويد" أكثر، الآن سيترك الحلم لعقله تمامًا، فأي تدخل منه قد يُدمره تمامًا، بانسحاب "جويد" وهيمنة العقل على الحلم سيُعطي سيرًا طبيعيًا له، ليس إبداعًا مشوشًا ناقصًا غير مكتمل التفاصيل، كان يمنحه حياةً موازيةً لحياته الخاصة، بإمكانه شرب الماء لأن التفكير في الماء سيكون موجودًا، وليس ضيفًا غريبًا على حلمه، طعامه لن يكون مبتكرًا، لا يعرف ماذا سيأكل؟ ولكنه سيأكل مما سيجده في البيت، كل هذا جعل الراحة تسري في جسم "جويد"، لكنه طبعًا وتلبية للغريزة البشرية، فإنه سيجعل العمدة ضعيفًا، يتلقى الصفعات من الناس، جعل نفسه سيدًا في بيته فقط، لا يتدخل بما يحدث في خارج حدود

دائرته، جعل النجع محيطا لحياته، لن يرتحل في أحلامه ما بين سواحل ومصايف سترهق تفكيره، لكنه يشعر بإجهادٍ حقيقي حتى في حلمه، كان يشعر بأنه مُتعب جدًا، وأن دماغه يكاد ينفجر في بعض الأحيان.

****

مشت حياة "جويد" بالتوازي مع حلمه الذي خطط له، يستيقظ من الواقع ليجد حلمه الذي يُشبه الواقع أيضًا، وهذا سبَّب له إجهادًا عقليًا كبيرًا أيضًا، والذي زاد الأمر أن "سعاد" كانت حاملًا في حلمه، اندهش جدًا كيف يمكن لـ"سعاد" أن تكون حاملًا في حلمه؟ وهو أصلًا لم يتزوجها في الواقع؟ وحين فكَّر عرف أن العقل سار بالحلم إلى الوضع الطبيعي، والوضع الطبيعي يُحتم على "سعاد" أن تكون حاملًا، وقد كبر بطنها على غير العادة، الأيام التي كانت فيها "سعاد" حُبلى سارت أسرع من أيام الواقع، هنا تأكد "جويد" أن حياته في الحلم أسرع من حياته في الواقع، ولم يعرف كيف يتصرف، لم يتجاوز الأمر عدة أشهر حتى وضعت زوجته توءمها، كانا بنتًا وولدًا في غاية الجمال يُشبهان أمهما كثيرًا، نفس الملامح الجميلة، ونفس البياض الشاهي، أطلق على البنت اسم "فاطمة" وعلى الولد اسم "سعيد"، "جويد" كان فرحًا بطفليْه، كان يُقابل العمدة كثيرًا في حُلمه، لم يكن عمدة بالطبع، بل كان يعمل أجيرًا، وفي كل خروج ودخول كان "جويد" يضربه على قفاه، ويستمتع بإذلاله، وكلما رآه يضرب أحدًا من النجع في الواقع، كال له الضربة تلو الأخرى في الحلم، لم يكل ولم يمل ولم يكره قفا الأدهم الذي انطبعت عليه ملامح يده من كثرة الصفعات.

كان جويد يستيقظ مرهقًا ومتعبًا، لكنه لم يكن قادرًا على مقاومة عدم رؤية طفليه، طالت ساعاتُ نومه، حتى إن أمه خافت على ولدها، وكان يتضايق جدًا حين تفصله يد الأم عن حُلمه، وكان يصرخ في وجهها، تُبادله الصراخ أحيانًا، ويمتلئ البيت بالناس وتشكو لهم الأم حاله الذي انقلب، لم يعد جويد يُحب واقعه، لم يعد يُحب "سلمان" وجلساته وكلامه عن زوجته، لم يعد يُحب الدنيا بكل ما فيها من تعب، في نومه كان يحيا، لم يعد النوم بالنسبة له موتًا صغيرًا، بل كان حياةً، إنه يكاد يموت في جلده حين تقول له "سعاد" إن ولده مُتعب، يجري إلى المستشفيات ويرجع بالابن صافيًا وجميلًا ورائقًا، كان يعلم أن ابنه من ابتكار العقل، وأن العقل يوائم نفسه مع احتياجاته، وحاول أن يمرر له حياة بكل ما فيها من أمل ولذة ومرض وقسوة واحتياج وتعب وفرحة، وبالتالي فالحلم نفسه قادرٌ على سلبه روح ابنه لأنه- في الأساس- السبب في وجوده، كان يتعامل مع الأمر على اعتبار أنه لا يملك فيه شيئًا، لا يعرف ما القادم في الحلم لأنه سار بطريقةٍ من ابتكار العقل، وعقله كان يُدير دفة الأمور ببراعةٍ، كان يرسم له حياته دون أن يتأثر بشيء سوى ذلك الصداع الذى يأتيه بين الحين والحين، يحتمله بقدر الإمكان، ويُحاول ألا يفكر فيه، في بعض الأحيان كان يرحم العمدة، ولا يقسو عليه، ويأمره أن يلبس الملابس النظيفة، وأن يمشي ومن حوله الخفر يحاوطونه، يمشي العمدة ويتبختر في مشيته، فيفاجئه "جويد" باختراقه لصفوف الخفر وضربه على قفاه، ربما ليعيد إليه ذاكرته بأنه ما زال تحت طوعه، أو ربما ليجعله يكفر عن سيئاته في حق النجع، بالنسبة للزمن وبعد قياسٍ كثيرٍ، عرف "جويد" أن الزمن لا يُشكل قلقًا لأن عقله كان يُسرع في بعض الأحداث ويؤخر بعض الأحداثَ، وبالتالي هو لا يمشي على وتيرةٍ واحدةٍ، "جويد" وضع لنفسه سيناريو قويًا في حلمه، أخذ يراقب الفلاحين ويتابعهم وهم يقلعون ويحرثون ويروون الأرض، كان يكتب في دفتره مَن الذي غاب، ومَن الذي حضر ومشى حلمه طبيعيًا وطبيعيًا جدًا، صحيح أن الألم كان يزداد، لكنه تجاهله بقدر الإمكان، وحاول السير على الحافة ما بين الواقع والحلم.

حُلمٌ وَوَاقِعٌ

كان قد صلى الظهر وخرج يُمسك رأسه من صداع قوي، كان يشعر بأن هناك قلبًا آخر يدق في رأسه، مشى إلى البيت، كان جائعًا، وفي الطريق قابل "الأدهم"، وكأن "الأدهم" لم يره، كان من حوله الخفر يمشون ويفتحون له الطريق المفتوح، "جويد" مشى بينهم غير عابئ بكمِّ البنادق التي تُحاوط جسد "الأدهم"، كان المشهد بالضبط كما يراه في حلمه حين يسمح له بأن يسير بين الخفر، يتستر خلف البنادق لكي تحميه خوفًا من انفلاتٍ متوقعٍ لأحد أبناء النجع، أسرع "جويد" إلى عنق "الأدهم" وصفعه بقوةٍ على قفاه، صفعة تعوَّد عليها "جويدٌ" حتى إنها لم تشكل له أي رد فعل جديد، صفعة تردد صداها في الفراغ، والعمدة انكفأ على وجهه في التراب، في البداية تسمَّرت البنادق في الأيدي، ونفض "جويد" يده ككل مرةٍ يضرب فيها "الأدهم"، لكن "جويد" رأى تصرفهم انعكس هذه المرة، البنادق ارتفعت وراحت كعوبها تدق وجه "جويد"، صرخ:

- أنتم في حلمي يا أولاد الكلب.

كل شيء كان يُوحي بأنه حلم، لكن ضربه بهذه القسوة لم يكن مُخططًا له في الحلم، إلا أن طريقة لبس العمدة وطريقة مشيته، ومحاوطة الخفر له كلها تؤكد أنه في الحلم، ولكن هل الألم يوجد في حلمه بهذا الشكل، بطنه يئن تحت وطأة الضربات والقبضات المضمومة، خده يصفر تحت دوي قبضات وراحات الأيدي، جسمه كله يئن بقوةٍ، كان غبارٌ خفيفٌ راح يسري في جسم الدنيا، ثم برز وجه "الأدهم" من بين الغبار:

- أتضربني على القفا يا ابن الكلب؟!

وكان آخر ما سمعه هو صوتٌ عالٍ، وجنتاه كانتا تؤلمانه كثيرًا، انتبه فجأةً ليجد "سعدية" وأباه وأمه، حاول الاعتدال في جلسته فما استطاع، وجد جسمه مليئًا بالأربطة، كأنه مومياء عصرية، سعدية تُمسك بقطعة شاش ملفوفةٍ على قطعة قطنٍ وتصبُّ عليها "الميكروكروم"، وتمشي بالسائل على جروح وجهه، تتناول قطعةً أخرى مضمخةً بصبغة اليود وتكويها، كأنما هناك حشراتٌ صغيرةٌ تمشي في جروحه فتُسبب له الألم العظيم، قلبه يدق في أماكن كثيرة في وجهِهِ وظهره وقدميْه، وكأن شفتيْه أصبحتا غليظتيْن، مرَّ بيده ليتأكد من حجمهما وعاد بيده إلى جانبه مُطلقًا زفراتٍ بها الكثير من الوجع.

- أنحن في الحلم؟
- أي حلم يا جويد؟
- أين "سعاد" زوجتي.

"سعدية" نادتْ على أمه، الجروح محشوةٌ بالألم العنيف، الأم تمد يدها، وتمسح السحجات التي ملأت وجهه.

- أين "سعاد" يا أمي؟
- مَن هي "سعاد" يا ولدي؟
- "سعاد لبن" زوجتي يا أمي.

تبتعد الأم، وحين تعرف أنه ما زال يروحُ ويجيء في غيبوبته، تنظر إلى "سعدية" وتقول:

- ابني لا يعرف ماذا يقول.. لقد خرَّف تمامًا.

وحين مشت "سعدية" وقفت الأم ولطمت خدَّيْها:

- بعد كل هذا الصبر كله يحلم "بسعاد"!

- أأنا في حلم أم في واقع يا أمي؟

الأم لطمت خديها، وهذا يعني أنه في الواقع، ثوانٍ وغفا متأثرًا بجراحه، جاءته "سعاد" وهي تحمل له الأكل، اعتدل في جلسته، وراح يأكل، يد "سعاد" تهتز، يستيقظ ليجد الأم تُمسك بالملعقة وتذهب بها إلى فمه:

- كُلْ يا بني ليقوى جسدك.

دخلت "سعاد" وهي تلبس غير لبسها الذي اعتاده منها.

- اجلسي يا ابنتي.

جلست "سعاد"، ووجّهت كلامها للأم:

- أذهب الله البأس عنه يا خالة.. لقد تكلمت مع "الأدهم" بشأنه، ولن يفعل معه شيئًا آخر ولا أعرف ما الذي دعا جويد لفعلته.

نظر "جويد" إلى "سعاد"، زوجته "سعاد"، يا إلهي كم يُحبها..

- أين الطفلان يا "سعاد".. أريد أن أراهما!

قلّبت "سعاد" كفيْها في حيرةٍ:

- طفلان من يا "جويد"؟

- طفلانا نحن يا "سعاد".. "فاطمة وسعيد"..

وقفت "سعاد" مندهشةً، وكونها وقفت مندهشةً فهذا يعني أنها ليست في حلمه..

- اجلسي يا "سعاد".. إني أمزح معك.

تنفست الصعداء، حتى الأم زارتها ابتسامةٌ، وقالت:

- حين يتزوج يا "سعاد" فلن نجد له أفضل منكِ.. يا أفضل بنت في النجع والنجوع المجاورة.

قالتها "أم جويد" فضحكت "سعاد" ومدّت يدها بنقودٍ إلى "أم جويد"، وحلفت بالله أن تأخذها، "أم جويد" أصرّت على الرفض، فاجأها "جويد" بقوله:

- خذيها يا أم.. إني أمنحها الكثير في الحلم..

وضحك بقوةٍ وسط ذهول الأم و"سعاد".

ضَيَاع

دخل جويد متكئًا على كتف أبيه..

- الدكتور قال ندعه يرتاح..

قالها موجهًا كلامه للأم، ومصمص شفتيْه، وراحت دموعُ الأم تسح، وهي تنظر إلى "جويد" الذي ذاب لحمه من الوجه، وبات عابسًا ينظر إلى الفراغ بعينيْن زائغتيْن، ودائمًا فمه مفتوح فيتساقط اللعاب على قميصه، دخل "جويد" بمساعدة أبيه وفرد جسده على السرير، كان يُفكر في طفليْه، كان يُحبهما بقوةٍ، يُغلق عينيْه حتى يغيب في النوم، لكن النوم كان يُعانده كثيرًا، فلا يعرف كيف ينام كل يومه، لا يِريد أن يستيقظ حتى وإن مات في حلمه وسط ولديه وزوجته، ثم إن أباه وأمه موجودان في الحلم أيضًا، فما حاجته للرجوع إلى البيت، نام "جويد" أخيرًا، "فاطمة وسعيد" كانا قد كبرا وحين رآهما، فتح يديه على مدى اتساعهما ليحتضنهما بقوة، وراح يتشممهما بحب، شعر بأن يدًا تهزه، وولداه يبتعدان عنه، لا ليس الطفلين، أفاق ليجد أمه تهزه و"سعدية" تقف بجوارها..

- قلتُ لكِ لا توقظيني... أريد رؤية طفليَّ..

الأم سكتت وضربت كفًا بكفٍ و"سعدية" تضرج وجهها بحمرة خجل، وخرجت من البيت، "جويد" بكى..

- لن أستطيع النوم ورؤية طفليَّ الآن.

الأم أيضًا سمحتْ للدمعِ المكتومِ بالنزول.

نَهَارٌ غيْرُ عَادِيٍّ

كان الوقتُ نهارًا والشمسُ ترمي النهار على النجع، تتضح الأشياء والأشكال، الريح زاحت الخَلق إلى داخل البيوت، وأجبرتهم على غلقِ الأبواب، ووسط هذا الحرِّ القادر على هزيمة كل الكائنات، يكون هو جالسًا على مصطبة الدار، يسند ظَهره إلى الجدار، ومن خلفه طائرة صغيرة تكاد تهبط على المصطبةِ، لكنه يضغط على مقدمتها فيمنعها من الهبوط، كان يسند رأسه على جسده كيفما اتفق، يلبس طاقية مزركشة من النوع الذي يأتي به الحجيج، يلبس جلبابًا أبيض استحال مع الوقت إلى اللون البني الخفيف، ينتعل "شبشبًا" فيظهر جلدِ رجله المتشقق كأخاديد أرض عطشى، لحيته استطالت، وظهرت ككتلةٍ واحدةٍ متماسكةٍ، من فمه يسيلُ خيط من ماء يشتبك بذقنه ثُم يمتد حتى ياقة جلبابه عند الصدر، سمع أزيزًا خفيفًا يروح ويجيء، رفع رأسه بتردد وبطء واضح، رأى الفراشة التي أمسكت بإصبع قدمه اليمنى، واستكانت عليه بهدوء، بين الحين والحين تمرق من أمامه سيارة تهيج التراب الساكن، يرتفع الغبار ويحط على أجزاء جسده، غالبًا لا يهتم، ويظل رأسه مدلوقًا على صدره، أنفاسه المتلاحقة تجعل صدره يعلو ويهبط ويمنح حركة آلية لرأسه، يتناهى إلى سمع "جويد" تلك الدقات الناشئة عن اصطدام أسفل العكاز المعدني بالأرض، تشتد أصوات الدقات، وتقترب منه.. يرفع رأسه بضعفٍ وينظر ليرى "حامد" صديق عمره قادمًا، "حامد" الذي لم يكن يرى "جويد" الذي عرفه قديمًا، لم يكن ذلك الشخص الذي قال عنه يومًا أنه توءمه غير الملتصق، أو الوجود الثاني لروحه، العالم كله الآن غير مهم لصاحبه، وجوده مسألة وقت كأنه مُنساقٍ لشيء لا يقدر على مقاومته، وجهه دائم النظر إلى التراب، كأنه يستجدي التراب، الأب الأكبر الذي خُلقنا منه وننتمي إليه، التراب الذي حين تموت الكائنات سيفسح في جسمه ويستقبلهم ويحتويهم، "جويد" كان مخلوطًا بأبيه التراب، لكنه يحيا إذعانًا لعهدٍ قديم وضعه الله، حتى خطواته أصبحت مجرد نقلاتٍ لصرف الوقت، يمشي ويرجع متسندًا على الحائط، بالكادً يقدر على جرِّ رجليْه..لا يعرف أين كان، ولا من أين جاء، كل ما يعرفه أنه موجودٌ بأنفاسه، حتى عقله تركه، وارتحل قبله إلى عالمٍ آخر، عالم أدرك فيه أن الحياة ما هي إلا كتابة بقلم رصاص على جسم الدنيا، الحياة والموت خطان مَتوازيان لا يراهما إلا عاقلٌ، ولا يُنكرهما إلا أحمق.

- مضطرب عقليا..

هكذا قال الدكتور، أبوه ترجم العبارة على أن ابنه مجنونٌ، والأم كانت تسمع عن المجانين الذين يُشبهون شيوخًا راحت عقولهم من شدة الوجْد، لا يسألون عن طعامٍ ولا شرابٍ إلا بقدر ما يسمح لهم بالحياة، لا يعرفون ملذات الدنيا، عرفوا كيف يكتمون شهواتهم ويَمنحون كلَ تفكيرهم لمحاولات الرضا، الآن "جويد" مثلهم، لكنه لا يسكن في المسجد، نفس النظرات الزائغة، نفس الاستسلام السهل والابتسامة المُحيرة، وجهٌ مثقلٌ بتعبٍ، بين الحين والحين يُردد كلامًا غير مفهومٍ، يقول "فاطمة" ابنتي، و"سعيد" ولِدي، و"سعاد لبن" زوجتي، كل الناس تعرف أن "جويدً" غير متزوج، كلهم يخبطون كفًا بكفٍ ويقولون: "لا حول ولا قوة إلا بالله"، وحين تُقبل "سعاد لبن" ويراهاً "جويد"، يرفع رأسه، ويجمع كل قوته فيرفع يده إلى "سعاد"، وهي تخاف منه، تذهب لأمه التي تبكي وتربت عليها، لكن "جويد" لا يرفع نظره من عليها، يظل يقول: ولداي "فاطمة"، "سعيد"، "سعيد"، "فاطمة"، ولا تعرف "سعاد" شيئًا مما يقوله، لم يعرف أحدٌ ماذا حدث له، "حامد" نفسه كان يُحيل الأمر إلى قضاء الله، "جويد" الذي كان زينة شباب النجع، كان هادئًا وخلوقًا ويُحب الخير للآخرين، لم يبق منه إلا شبحٌ خفيفٌ لآدمي، وحين يبهت نور الشمس، وتهيئ

الدنيا نفسها للظلام، يقوم "جويد" ويتسند على الجدران وعلى يد أمه، يتبعهما "حامد"، ويدخل إلى البيت، يتمدد "جويد" على سريره، وتأتي الأم، وتُحاول أن تجعله يأكل، لكنه يصر على النوم بشكلٍ غريبٍ.

أغنية "هات الغلاي".. تأليف الشاعر السيد العديسي
شكر خاص:
د. حمدي إبراهيم
أمير حسين
أحمد عبد المجيد
أحمد جاد الكريم
ناصر خليل
بستاني النداف